محمد سعيد القشاط



من ظفار
الى الساقية الحمراء



دار لبنان للطباعة والنشر
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم



محمد سعيد القشاط

مِن ظفار
الى
السّاقية الحمراء

النَاشِر
دار لبنان للطباعة والنشر
بيروت - لبنان



الاهداء

- إلى كل شهيد سقط من اجل اعلاء كلمة الحق
- إلى كل ثائر يدافع عن كرامة امته ووطنه
- إلى ثورة العرب الكبرى من الخليج الى المحيط

اهدي حديث الثورتين هذا .

محمد سعيد القشاط


ANCH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

أعزائي القراء .

في هذه الظروف التي تتكالب فيها قوى الاستعمار العلني منه والمبطن على اقتسام أمتنا العربية وترابها المقدس .

في هذه الآونة . مكنتني الأقدار من الوقوف على ثورتين عظيمتين ، يخوض رجالها الكفاح المسلح دفاعاً عن كرامة العرب، وعن أرض العرب .

الثورة الأولى في عُمان في منطقة ظفار . حيث يطالب رجالها بتحرير المنطقة من القواعد البريطانية. وطرد النفوذ الايراني المتمثل في القوات الزاحفة الطامعة من طهران إلى أراضي الخليج العربي وجبال العرب ومنتجعاتهم .

والمطالبة أيضاً بتوحيد الأجزاء المتناثرة على ضفة الخليج. والمقسمة بين العشائر والمشائخ. وهي أعجز من أن تدافع عن خيمة . ويكفي أن جزيرة أبو موسى لم تجد من يدافع عنها غير ستة من الرجال قتلوا ليعيش المشائخ .

والثورة الثانية على ضفاف المحيط الأطلسي . يخوضها رجال أفخر أن

الدماء التي تجري في عروقي لها نشب بتلك الصحراء .

فمنذ عام وثلاثة أشهر والرجـال يقبضون على أزندتهم يتنقلون على ظهور الجمال تحت حر الهجير يقاسون الجوع والعطش من أجل تحرير جزء من أجزاء أمتنا الغالية ألهى الكثرة من العرب نفطهم عنها .

وأنا أكتب هذه المقدمة في مصائف لبنان ، وأشهد البذخ الذي يعيشه أمراء النفط وذويهم ،والسيارات الفارهة التي لا يفقهون منها إلا مقعد القيادة والجلوس عليه .. أشعر انني أتمزق من الداخـل بعد معاينتي للجوع والعري الذي يقاسيه شعب الصحراء وثورة الصحراء . وكذلك شعب عُمان وثورة عُمان .

متى يصلح هذا الخطأ في التركيبة العربية ؟..

ومتى يتعافى أمراء الجزيرة من تخمتهم ليتعافى الجياع العرب من جوعهم ؟

متى تتحد هذه الثورات المتناثرة في ثورة واحدة عارمـة تحطم الأخطاء والمخطئين . وتبعث أمة العرب من جديد . وتعيد للجسم العربي شبابه وقوته وعافيته ؟

ان الإنسان ليخجل من جيله حتى البكاء ، وهو يقرأ عن زوجة أحد الرؤساء العرب وهي تنثر الليرات الذهبية على الحاضرين في عرس ابنتها . وهو يعلم أن شعب تلك السيدة يتقاتل على فتات الخبز ، ويشرد في البقاع طلباً للرزق .

وإن الإنسان ليخجل حتى النخاع ، وهو يسمع عن ملايين الدينارات تصرف لاستقبال نكسون والشعب العربي تسحقه المجاعة .

والإنسان العربي يتميز غيظـاً وهو يشاهد بعض العرب كالعملة الزائفـة يهتفون للشرق أو للغرب دون أن يبحثوا عن تراثهم ودون أن يبعثوا انسانهم العربي المؤمن المخلص في داخلهم.

ان مستقبل هذه الأمة بيد الشباب وإني لأراه باسماً بإذن الله .

وإن ربط هذه الثورات في ثورة واحدة متصلة عارمـة . هو أيضاً بيد الشباب .. واني لأراه قريباً بإذن الله .

« وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون » .

محمد سعيد القشاط

بيروت { ١٣ رجب ١٣٩٤
١ أغسطس ١٩٧٤




ANICH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY

من ظفار الى الساقية الحمراء

سواي منعم تؤويه دار ... بقصر لا يطاوله الغبارُ
ويصبح نائماً وتبيت غرثى ... حليلته ويلهيه النضار
وللاسبان في الصحراء عسف ... وتصلى من بني كسرى (ظفار)
وفي (شنقيط) تلتهم المنايا ... جياعاً ثم يخفيها القفار
وفي أرض الجزيرة كم ديار ... تخربها المجاعة والصَّغار
وفي القدس الشريف ذوات خدر ... يلطخ وجهنا منهن عار

●

أيا أم البنين كفى عتابي ... وتسآلي متى ينهى السّفار ؟
وضيقك من ليال طال فيها ... تذكـّرنا وقد هجع الصغار
فما دامت جوانحنا بذل ... مهيضة لا تطير ولا تطار
فهذاك الخليج يعج نارا ... وباروداً يشعلها التتار
وساقية المحيط تمور غيظاً ... بلا سند بها الأحرار ثاروا
تريني اغبر الفودين شعثاً ... أدور مع الكواكب حيث داروا

إذا ثارت (عُمان) وجدت فيها ... تعانقني على شغف ـ (سحار)

وأشدد للربى الحمراء رحلي ... إلى أن يطرد الليل النهــار

فقومي من (دمشق) إلى (المكلا) ... إلى أرض بها شيدت (أطار)

وبين مواقــع الثوار أحيا ... صدى صوت المدافع حيث داروا

وأنات السجين بكل أرض ... لها عبرى إلى الدنيا مسار

يراعى للعروبة صوت حق ... وثورتنــا إلى الدنيــا منار

ألفت لوافح الصحراء حتى ... بدت خلف العجاج لنا (بشار)

جلست عشية فيها وحيداً ... وطيفك ما نأى عنه المزار

أريدك تفهمين جراح قومي ... وعني حين يسألك الصغــار

لهم قولي مــع الثوار يضحي ... ويمسي سوف يرجعه انتصار

ويذكر دائماً .. بل كيف أنسى ... ليال في (طرابلس) قصار ؟

بشار ـــ جنوب الجزائر

٣ مارس ١٩٧٤



ظفار

١ اغسطس ١٩٧٣

بعد أن قضينا قرابة الخمس ساعات نتمرجح في طائرة صغيرة أقلعت بنا من مطار عدن متجهة صوب الشرق . تهبط بين الحين والآخر في المطارات الصغيرة فنقعى بها اقعاء الذئب ، وتطير فوق القمم الشوامخ كما تطير الجرادة .

ضاعت علينا ساعة من الساعات الخمس ونحن في أرض فضاء قيل انها مطـار (قشن) لا أنيس فيها ، استعملت الطائرة منبهها فسمعه مندوب الشركة الذي جاء في سيارة كبيرة، وجلس في مؤخرة الطائرة يحاسب الجماعة ويتظلم من ضآلة راتبه، دون أن يشعر بأدنى حرج في أنه أضاع الوقت علينا.. الأمر الذي جعل قائد الطائرة ينطلق بها على الأرض والشيخ بداخلها بعد أن أعجزتـه الحيلة في إنزاله ، ولم يقف القائـد بطائرته الجرداء إلا بعد أن وقف أحد المواطنين يلوح ببندقيته متوعداً فانصاع هذا لإنزال الشيخ وانطلق دون أن يحكم قفل البـاب .



بعد أن قضينا تلك الساعات نزلنا « بالغيظة » - إحدى قرى حضرموت- حيث أقلتنا سيارة ، طاوية، برفقة مجموعة من الثوار لتلقي بنا بعد مسيرة ثلاث ساعات أخرى في قرية صغيرة قيل ان اسمها « دمقوت » تتوسطها خيمة متوسطة ، هي بيت الضيافة للأخوة الثوار .

ولجناها وبقايا الشفق الأحمر تغرق خلف القمم ..

كانت الانارة ضئيلة، والمصباح مغبش الجوانب يتربع فوق صندوق حديدي هو الأثاث الوحيد في هذه الخيمة - فتح فيما بعد ليخرجوا منه لنا الشاي والسكر - .

كانت عيون الرجال تقدح الشرر حول المصباح وسط الظلمة ، وتبينت في وجوه الجالسين قبلنا ملامح امرأة تبرز بين الرجال لا يميزها شيء بينهم اللهم إلا اطالة قليلة في شعرها الأجعد ..

كان الجميع يقبضون على بنادقهم بما فيهم المرأة ، ويتمنطقون بأحزمة الذخيرة ، نحن الوحيدون الذين كنا عزلاً من السلاح - وما أسوأ أن يكون الإنسان أعزل بين المسلحين - إذا ما استثنينا مسدساً يربطه كل منا بحزامه كشعار بأننا دخلنا منطقة الثورة ..

لم تكن الخيمة ممهدة الأرض ، ولم يكن بها أي أثر لشيء اسمه الفراش ولقد كان بعضنا لم يألف النوم على أمنا الأرض دون عازل ..

جلسنا منهكين من التعب وكأن على رؤوسنا الطير ، ينظر كل منا إلى عيون الآخرين ، وغرق أحد الرجال في الظلمة وبعد قليل أقبل يجرجر عنزاً اشتراها لضيافتنا أصبحت في ثوان لحماً يطبخ في قدر كبير مع الأرز ، دلق ذلك في قصعة كبيرة مسطحة تجمهرنا حولها نزدرد بالأيدي ذلك الخليط من اللحم والأرز ، وافترشنا الحصى وتناومنا مع النائمين ..



سبعة رجال وعنز

قبل انبلاج الفجر بقليل قمنا دون أي جلبة وقد عبأ كل منا « مطرته » بالماء وجمع لوازمه في مخلاة شدت إلى الظهر .. وتمنطق بسلاحه ، وسرنا نتتابع كالذئاب دون أي ضوضاء فالسكوت في هذه المناطق من ذهب .

أصر أحد الثوار أن يصطحب عنزاً لغذائنا وأن يجرها بحبل خلفه ، وقد كنا جميعاً في وضع يثير الشفقة ، وكانت العنز المسكينة أسوأنا حظاً ..

الطريق كمسرب النمل يتعرج بين الصخور السوداء قاصداً قمـة الجبل في صعود متعب .. ونازلاً للوادي السحيق في انحدار قاتـــل .. وعلى يميننا بحر العرب ، يصطخب بأمواجه .. مئات الأطنان من الماء ترتفع عالياً وتهوي إلى الأعماق السحيقة كما تهوي الأمم بعد صعودها الشامخ.. جميعنا لا نتحدث ، وكل منا يريد أن يوفر الجهد الذي قد يبذل في الحديث للسير ، وأراد أحد الأخوة أن يلطف جونا بالأماني قائلاً :

لو لم يكن قدومكم في هذا الفصل لقطعنا الطريق بحراً ، إذ أن البحر طيلة أشهر يوليه وأغسطس وسبتمبر لا يمكن الدخول إليه ، أو الابحار فيه من كثرة الدوارات ..

العنز أمامنا تتدلى أحياناً في الجبـل والثائر « ويدعى بخيت » يقفز فوق الصخور أمامنا في خفة وقوة ويجرجرها كما يجرجر الأطفال خرق القماش في لعبهم ، وقد أعلنت المسكينة احتجاجها مراراً ولكنها آثرت الاستسلام في صمت عندما وجدت أن الصياح يكلفها جهداً ضائعاً لا فائدة منه ، ولم يجد أذناً صاغية كأي احتجاج للضعفاء ..

تتابعنا في الطريق ، كل منا يسير خلف صاحبه ، مشدوداً إلى الأمام لتفادي الصخور ومخافة مباغتة أحد الانجليز أو (البلوش) الذين يشتغلون في خدمة السلطان قابوس ويرتزقون من القتل ، فقد يطلقون علينا النار إشباعاً لهواية القتل في نفوسهم ..

طـــائرة ببقرة !!

وعلى ذكر إطلاق النار ، فلقد صادف يوم وصولنا أن أسقط الثوار طائرة كان يقودها أحد الضباط الانجليز . يغير على السكان الآمنين ، يقتل الناس والحيوان ، ويلبس « شورتاً » قصيراً وقميصاً صيفياً وكأنه في إجازة الأسبوع ..

وقد كان هذا الشاب المغرور ينزل بطائرته إلى قرب الأرض مصوباً رشاشها إلى الأهلين باحثاً عنهم في الأحراش والصخور ..

وقد صادف أن كان بعض الثوار بالمنطقة ، فكما يتسلى باطلاق النار على الصخور علها تكون هي الأخرى ثائرة ، كان الثوار هم أيضاً يتسلون بإطلاق النار عليه من بنادقهم العادية .

وأخيراً تمكن الانجليزي من قتل بقرة وإصابتها إصابـــة مباشرة ، وصار ينقض عليها ويرتفع فلربما تعود لها الحياة ، ولكن الثوار قايضوه وكانت مقايضة

عسيرة ، فأبقار الثوار غالية الثمن ، إذ استطاع أحدهم أن يصيب الانجليزي إصابة مباشرة في رأسه وفي جنبه هوت على أثرها طائرته إلى الأرض متناثرة إلى ثلاث قطع ، كان هو يتربع ميتاً في القطعة الأمامية ، ولقد حاول الثوار نقل الجثة وتسليمها للهلال الأحمر ولكن طائرات زملائه كانت أسرع منهم إليه فلقد أمطروا الطائرة بوابل من الرصاص لتحطيمها وحرقها وحرق الخرائط ، التي بداخلها ، وإزالة ما يدينهم ، ويثبت تواجد الانجليز في المنطقة ، ومع ذلك فقد تحصل الثوار على كافة الخرائط ودفنوا إلى جانب الطائرة بقايا جثة ذلك البريطاني التعيس ..

ان طائرة ببقرة ثمن لا يصدق ، ومع ذلك حدث ، ولكن من أجل ماذا يموت هذا الشاب الانجليزي الذي لا شك أن زوجته وأولاده ينتظرونه خلف البحار ؟.. انها السياسة « وعلى الأصح سياسة الجريدي الذي حشر نفسه بين المسجونين السياسيين . ولما قيل له ان جريمتك اخلاقية قال كلها سياسة » .

الى القمم

كانت هذه الأفكار تدور في مخيلتي ، وأنا أسير خلف أحد الزملاء.. لقد أصبحت الطريق تتجه بنا إلى أعلى .. إلى أعلى .. إلى أعلى القمم التي ما تبلغ نهاية الواحدة حتى تبدأ الثانية ، وكانت أرجلنا – مع ارتفاع الشمس في وجوهنا – تخور .. وقوانا تضعف.. وحلوقنا تجف وتنشف، لم ترطبها جرعات الماء التي يتناولها كل منا من مطرته على انفراد ، ولقد كان كل واحد منا يخشى أن يعلن عن تعبه فيستهزىء به الزملاء. وكنا نحن – جماعة الصحافة – نحاول في جهد جهيد أن نعلن للثوار أننا لسنا بأقل منهم صبراً وجلداً .. وتوغلت الطريق في الصخور إلى الأعلى ، وكان الرجال المسلحون يصادفوننا في الطريق فنقف حتى يمروا أو يقفون حتى نمر ، وكان التسليم بالعناق يتم بين أهل جنوب الجزيرة العربية ، وكنا نقلدهم في ذلك بعد أن لبسنا ملابسهم ..

وقبل أن نبلغ القمة ارتمينا مراراً تحت ظلال الشجيرات الصغيرة والصخور الناتئة . وعندما بلغناها كان الهواء مخلخلاً تماماً .. وأصبح الشهيق يتم بصعوبة فجلسنا نسترد الأنفاس ونستعد للهبوط، وهكذا بقدر الصعود يكون الهبوط..



فانحدرنا بشدة وكانت أحذيتنا تضغط على مقدم الرجل فتحدث في الأصابع أوراماً تؤلمنا في السير، وقد كانت أيدينا سنداً لنا على الأحجار الباركة التي كثيراً ما جرفت حقائبنا عند الدوران مع ملامح الطريق .. أصبحت المياه تنفد أولاً بأول ، وأصبحنا ننظر لبعضنا نظرات استجداء لجرعة ماء عند كل جلسة نرتميها على صخرة ..

وفي زحمة الإرهاق صعوداً وهبوطاً غاب بين الصخور زميلنا بخيت وهو يجر عنزه ، وعند وصولنا بعد منتصف النهار إلى مورد للماء يسمى (مرارة) وجدناه قد شواها شيأ لذيذاً أكلناه بشراهة بمثل الشراهة التي شربنا بها كؤوس الشاي بعد الطعام ، وعلى ذلك المورد وجدنا بمجموعة من الفتيات الجبليات بلباسهن المزركش الجميل ، ذكرنني بصويحبات امرىء القيس

اللواتي نحر لهن جمله ، وبالرغم من اننا نحرنا عنزاً فإننا لم نستطع أن نقدم لهن إلا قليلاً منها نظير « صخان » كبير من الشاي جدن به علينا .

وعند العصر قمنا لنواصل السير فلم تطاوعنا أرجلنا بل كأنها قيدت « بأمراس كتان إلى صم جندل » .. على قول الشاعر الجاهلي .

وصلنا بعد لأي إلى قرية « حوف ».. – آخر قرى اليمن الجنوبي من جهة عُمان – وقد كانت الشمس تودع القمم في رحلتها الروتينية ، وقد كنا ساعة الوصول سبعة رجال وفي بطونهم عنز ..

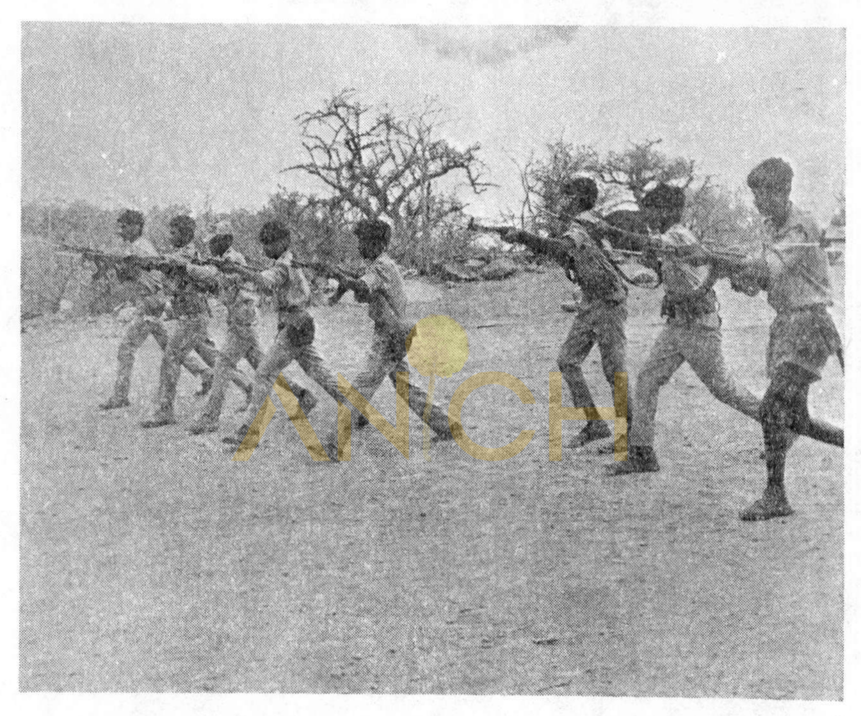
في حوف

دخلنا بعد الغروب إلى منزل شبه مظلم استقبلنا فيه ثلة من الثوار بترحيب حار ، واستلقينا على أديم غرفة شبه مفروشة بدت لنـــا وكأنها قصر منيف ، ولكنها مع ذلك لم تنسنا تعب الطريق ، الأمر الذي أصبحت فيه أرجلنا وكأنها قطعة من الألم نتأوه من مساسها .. وقد كان تجوالنا صباح الغد في هذه القرية مثيراً للألم وغير مريح للنفس ، إذ شاهدنا آثار الدمار الذي خلفته الطائرات البريطانية وهي تقصف المنازل التي تتوقع أن الثوار يأوون إليها .. وبالرغم من أن القرية هي من قرى الشق الجنوبي لليمن على الحدود العمانية إلا أن ذلك لم يمنع الطائرات من قصفها ، كما كانت تفعل فرنسا أيام حرب الجزائر في قصفها لساقية سيدي يوسف التونسية .. وقرية إيسين الليبية .

وفي إحدى الأنقاض التي مررنا عليها كان يرقد تحتها نساء وأطفال هم سكان المنزل ، ولم يستطع الأهالي بامكانياتهم البسيطة من إزاحة هذه الأنقاض فبقوا تحتها حتى هذه الساعة ، وأصبح المنزل الذي نقول عنه نحن هنا في طرابلس « قبر الدنيا » أصبح لدى هذه العائلة المنكوبة قبر الدنيا والآخرة أيضاً .

بين الثوار

شرعنا منذ فجر اليوم الثاني نصعد القمم من جديد للوصول إلى معسكرات الثوار ، وقد بدت الجبال أكثر خضرة وأكثر اشجاراً تجللها السحب وتزينها زخات المطر المستمرة في جو حار ، انها الأمطار الموسمية ..



كان التدريب على أشده . مجموعة من الشباب والشابات تتقد حماساً وحيوية يضمهم معسكر من الخيم المموهة تبدو وكأنها صخرة بين الصخور يظللها الشجر ، والمخيم يفتقر إلى الكثير من الضروريات ، ولكن ذلك لم يؤثر في معنويات الثوار العالية. وكانت القدور تفور بالأرز حين وصولنا .. وبعض الثوار يعدون طعام زملائهم ، وليس هناك قائد أو مقود ، فمسئول المعسكر يطهو هو الآخر طعام الجنود عندما يأتي دوره لطهو الطعام .. وطعام الثوار كغيرهم من سكان تلك

المناطق هو الأرز يجتمعون عليه جماعات جماعات ، كل مجموعة على قصعـــة لهم بنفس الطريقة التي بها يطهى ويؤكل في موريتانيا والساقية الحمراء .

وحول مخيمات الثوار يتجمع السكـــان الفقراء القريبون من المعسكرات ينتظرون الجنود علهم يجودون عليهم ببعض ما يتبقى من طعـامهم الذي لا يسد رمق الجنود .. ومع ذلك يبقون منه ما يسكن جوع المواطنين .

جلسنا مع الثوار بعد أن شاهدنا تدريباتهم ، وكان الجميع يدخنون بشراهة . إذ أنه من ضمن تموينهم يوزع على كل جندي كيس صغير من التبغ ومجموعة من الورق يتولى وحده طي سيجارته ولفها قبل اشعالها .

سألونا عن اخوتهم في الوطن العربي. وتحدثوا بمرارة عن التشويه الذي لازم ثورتهم في الوطن العربي وتصديق الاعلام العربي لما يدعيه قابوس من أنهم كفار مارقون عن الدين .. وعندما قلت لهم لماذا لا تعلنون وجهكم الحقيقي المتمثل في عروبتكم واسلامكم ، أجاب أحدهم: عندما نعلن عن قوميتنا العربية فكأننا كنا قبل ذلك فرنسيين أو انجليزاً ولكن نريد أن يطلع اخواننا العرب وحـدهم على حقيقتنا التي نترجمها عملاً ..

نحن ثرنا من أجل الكرامة العربية ، ومن أجل تطهير المنطقة من الاستعمار الانجليزي والزحف الايراني .. أليست هذه هي الحرية التي تنادون بها في الجمهورية العربية الليبية ؟

كما ثرنا من أجل خيرات هذا الشعب المنهوبـة المتركزة في أيدي المستعمرين وزعماء العشائر في المنطقة لنرجعها إلى الجماهير ونوزعها توزيعاً عادلاً ، أليست هذه هي الاشتراكية التي تنادون بها أنتم ..؟

كما ثرنا من أجل وحدة المنطقة والوقوف ضد التجزئة كخطوة أولى للوحدة العربية الشاملة التي تنادون بها أنتم أيضاً .. وعداوتنا مع قابوس لم تكن عداوة شخصية ،

فقابوس هو أحد أبناء هذه المنطقة ، ولو حمل معنا هذه الشعارات وكافح من أجلها لوجدتنا جميعاً جنوداً تحت قيادته ، ولكن موقفه من احتضان الاستعمار واعطاء القواعد للبريطانيين واعتماده على المستشارين الانجليـز ويكفي أنكم تعلمون ان رئيس أركان الجيش العماني هو انجليزي - كما ان تفريطه في الجزر العربية واعطاء ايران- إلى جانب جزر طنب الصغرى والكبرى وأبو موسى- جزر الحلانيات (كوريا موريا)، وتشجيعه للغزو الايراني - فيكفي أن تعلموا أن بعض ما يسمى امارات عربية أصبح الفرس يمثلون فيها ٦٠ ٪ من السكان وبيدهم جميع اقتصاديات البلاد - كل ذلك جعلنا نصنفه من الاعداء ونقف منه هذا الموقف .. ولم يقف قابوس عند هذا الحد بل تجاوزه إلى طلب الجنود من ايران لمقاتلتنا ، « ومن المعلوم ان شاه ايران صرح أخيراً بما يؤكد حديث الثوار وان اكثر من ثلاثة آلاف جندي ايراني يقاتلون الثوار في عمان بطلب من قابوس ».

ان عروبتنا واسلامنا ليسا مدار نقاش واننا نتوق إلى اليوم الذي تصبح فيه هذه المنطقة حرة موحدة ويعود اليها الدين ناصعاً وتقفل الخمارات ودور اللهو التي سمحت باقامتها السلطة في مسقط والامارات ..

كان هذا هو حديث الثوار الذي يروونه مجتمعين أو على انفراد ..

في خيمة القيادة

اقتدنا مساء إلى قمة عالية قيل لنا أن هذه الليلة ستنصب بها خيمة متنقلة للقيادة لنجتمع فيها بالأخوة اعضاء اللجنة التنفيذية المركزية.. والقيادة في جيش الثوار هي اللجنة التنفيذية المركزية وهي تتكون من عدة أشخاص يتولون المسئولية التنفيذية لمقررات المؤتمر العام الذي يعقد بين الثوار في كل عام تقريباً.. ولكل منطقة أيضاً لجنة تنفيذية مصغرة .

قدمنا للخيمة قبل الغروب بقليل فوجدنا في حراستها بمجموعة من الشباب الشداد ، إذ أن في القمة المقابلة يقع مركز « صرفيت » وهو مركز منقطع أقامه السلطان كمحاولة للسيطرة على مدخل الجبال ، ولكن المركز أصبح كالمنفى يأتيه التموين عن طريق الطائرات العمودية ويهاجمه الثوار بمعدل مرتين في اليوم ويجانب الخيمة إلى جانب الجنود برشاشاتهم ينتصب مدفع مضاد للطائرات ، ولو ان الفترة التي زرناهم فيها كانت فترة سلام تقريباً لعدم استطاعة الطيران التحليق على المنطقة لشدة الضباب ، وبجانب المدفع المضاد ينتصب قدر عظيم تطهى فيه شاة هي عشاؤنا هذه الليلة .



دخلنا الخيمة بعد عناق حار بيننا وبين الأخوة أعضاء اللجنـــة التنفيذية المركزية ، وعرفونا على بقية زملائهم الذين لم يسبق لنا رؤيتهم ، وجلسنا في دائرة يتوسطها مصباح من الكيروسين اضاء وجوهنا ولكن اقفيتنا زادها ظلمة

فاصبحنا كلوحة زيتية لمجموعة من الرعاة أمام موقد .. كان كل رفيق – كما يحلو لهم تسمية بعضهم – يضع رشاشه على ركبتيه ، وخلف الخيمة في القمة كنا نسمع وقع خطوات حافية لجنود الحراسة.. كانت تنورات الاخوة قصيرة جداً حتى انها تبدو « كالميني » وعندما لبسناها نحن لم تكن متقنة كما هو الحال في كل تقليد اعمى ،وقد ظهرت سيقاننا العجاف من تحتها واعطاهـا نور المصباح في عتمة الليل شكلاً أقرب ما يكون إلى عروق الشجر العارية . وبعد أن قعدنا على ركبنا لنزدرد قصعة الأرز واللحم التي أعدت لنا جلسنا نحتسي أكواب الشاي المر .. ويشرح لنا أعضاء اللجنة أهدافهم والأسباب التي ثاروا من أجلها فلم يزيدوا شيئاً عما قاله ذلك الجندي الثائر في المعسكر عندما مررنا على الجنود في مخيمهم وقت الظهيرة ..

ذكريات الثوار

تشعب بنا الحديث والحوار وأخذنا فيه كل صوب لنديره في النهـاية إلى الحديث عن الثورة في ظفار أو عمان والخليج العربي التيتفجرت يوم ٩ من يونيو ١٩٦٥ بسبع بنادق ومسدس واحد .. وستين رجلاً عزلاً من السلاح ..

والشيء الذي يتعب الصحفي أن هؤلاء القوم ينكرون ذاتهم لدرجة لا توصف ويرفضون الحديث عن أنفسهم بالرغم من بطولاتهم النادرة . ويعتبرون ذلك من الأشياء غير المحببة بل والمرفوضة قطعاً ، ولكننا بعد لأي استطعنا أن ننتزع من أحدهم مغامرة قام بها ومجموعة من رفاقه لجلب أسلحة ..

كان ذلك عام ١٩٦٥ والثورة في بدايتها ، ولم تكن لنا أسلحة ولا ذخيرة وقد فشلت قبل ذلك ثورة الجبل الأخضر لأن قادتها هربوا بما فيهم الإمام غالب الذي قامت الثورة من أجل الإمامية ، وبالتالي من أجله هو ، فذهبنا مجموعة من

الرجال لإقناع الإمام بإعطائنا ما بحوزته من السلاح . واستطعنا بعد جهد جهيد أن نتحصل منه على ثلاث سيارات محملة بالأسلحة ، ركبناها – نحن الثلاثين – وشققنا بها الصحراء مجانبين الربع الخالي من وسط الجزيرة العربية ، وقد كان قرب حدود عمان بئر ماء يردها كل قاطع لهذه الصحراء مضطراً لذلك ، وقد علمت السلطة بتحركنا فأرسلت فرقة من الجيش رابطت على البئر في انتظارنا معدة لنا كمينا للقبض علينا وعلى ما في حوزتنا وإبادتنا ..

وعند قدومنا للبئر فوجئنا بالقوة فاشتبكنا معها في معركة ضارية ، كل منا يدافع عن مصيره ، وبعد قليل هاجمتنا الطائرات واستطاعت أن تدمر وتفجر اثنتين من السيارات الثلاث ، وتمكن أحد زملائنا من الهروب بالسيارة الثالثة بحمولتها وإبعادها عن مكان المعركة .. وانسحبنا بعد عدة ساعات من القتال ملتحقين بسيارتنا ننقل أحد جرحانا جاعلين من الليل ستاراً لإخفاء ذخيرتنا وسيارتنا عن أعين الطيارين عندما يتبعوننا في الصباح .

تكدسنا فوقها نحن جميعاً وسارت بنا تعرج من اليمين والشمال فليس هناك طريق يمكن أن يسلك ، واستمرت تتمايل عدة ساعات إلى ان وصلنا الجبل ، وحاولنا صعوده بدون طريق ، وكنا جميعاً ندفع السيارة دفعاً إلى أن أوصلناها للقمة ولا بد من إيصالها إلى الوادي حتى لا ترى ، وفكرنا في أنها إذا تحركت إلى الأمام متراً واحداً فإنها ستهوي إلى أعماق الوادي وتتحطم بمن فيها وما فيها .. وقد كان سائقها شخصاً متزوجاً وعنده أولاد . وكنت أنا أعزب لا زوج لي فطلبت من الإخوة أن أقود أنا السيارة إلى الوادي فإذا ما سقطت بي لا يؤثر ذلك في أحد من بعدي بعكس زميلي ، وأرغمنا زميلنا على تسليم السيارة والتنازل عن قيادتها إذ اعتبر هو استبقاءه نوعاً من الإهانة وحرماناً له من التضحية .

قبضت المقود وتحركت السيارة من محلها وشعرت أنها تندفع بي للهاوية فأدرت عجلة القيادة إلى اليمين فاصطدمت السيارة بصخرة كبيرة أوقفتها وجعلت كل حمولتها تنكفىء إلى الشمال .. وهنا طلبت من الرجال أن يربطوا السيارة بالحبال

من الخلف وأن يمسكوها ويزيح أحدهم الصخرة ، وأن يجذبوها للخلف وما أن أزيحت الصخرة حتى اندفعت السيارة للوادي في شيء من اليسر..إذ أن الرجال كانوا يجذبهم لها من الخلف كالمظلة التي تخفف سرعة الطائرة..وسرنا على هذا الحال عدة أميال إلى أن اعترضني الجبل من جديد، ولما لم أجد وسيلة لاجتيازه أنزلت الذخيرة وتركت في حراستها بعض الإخوة ورجعت إلى بقية الإخوان الذين تركتهم بحبالهم في الجبل واصطحبت أحد البدو ليدلني على موقع زملائي إذ أن الظلام أصبح حالكاً لدرجة مخيفة .. وقد ركب هذا البدوي إلى جانبي فكلما مالت السيارة أو نزلت في مطب يقفز ويمسك في رقبتي ويصيح ، فأوقف السيارة وأخلص رقبتي من البدوي وأرجعه إلى مكانه ، واستمر هذا الحال إلى أن وصلت إلى الزملاء وعند العودة أمسكوه عني فلم يعد يستطيع القفز على رقبتي . وضحك وهو يروي ذكريات هذا البدوي وضحكنا جميعاً .. فلقد تمعنت في رقبة الأخ سامي – وهو الذي يروي لنا القصة – الطويلة ولحيته الكثة فكأنني أشاهد البدوي وهو يتعلق بها مذعوراً ..

وصلنا إلى موقع الذخيرة ، وهنا لم نستطع التقدم بالسيارة فأخذ كل منا حمولته من السلاح والذخيرة وأودعنا الباقي عند بعض الخيام وأحرقنا السيارة حتى لا ينتفع بها العدو . وعندما تصاعدت النيران فيها بكى بعضنا تأثراً عليها وأصبحنا كالذي أحرق قاربه على الشاطىء المعادي ، فبيننا وبين مناطق الثوار مساحة شاسعة ووعرة والماء عندنا صار ينفد أولاً بأول ..

تركنا السيارة خلفنا تشتعل وسرنا في الظلام إلى الصباح وعند منتصف النهار أخذ منا العطش مأخذه، ولم يبق لنا إلا « مطرة » واحدة عند الأخ سالم « قائد المجموعة » الذي أمرنا بالوقوف صفاً واحداً وأخذ يوزع علينا ملء الغطاء من الماء ليبل كل منا لهاته ، وهنا ضحك الجميع وسكت سامي ليكمل أحد الأخوة المأساة ..

كنت أنا في الطرف .. وبدأ سالم التوزيع من الطرف الأبعد وعندما وصل إلى زميلي الذي بجانبي قفز هذا الأخير على « المطرة » ليشرب منها ومن بين

أيديها—وبفعل المفاجأة— سقطت المطرة من القمة التي نحن في أعلاها إلى الوادي السحيق ببقية الماء حيث تناثرت القطرات على الصخور قبل استقرار المطرة في الوادي ..



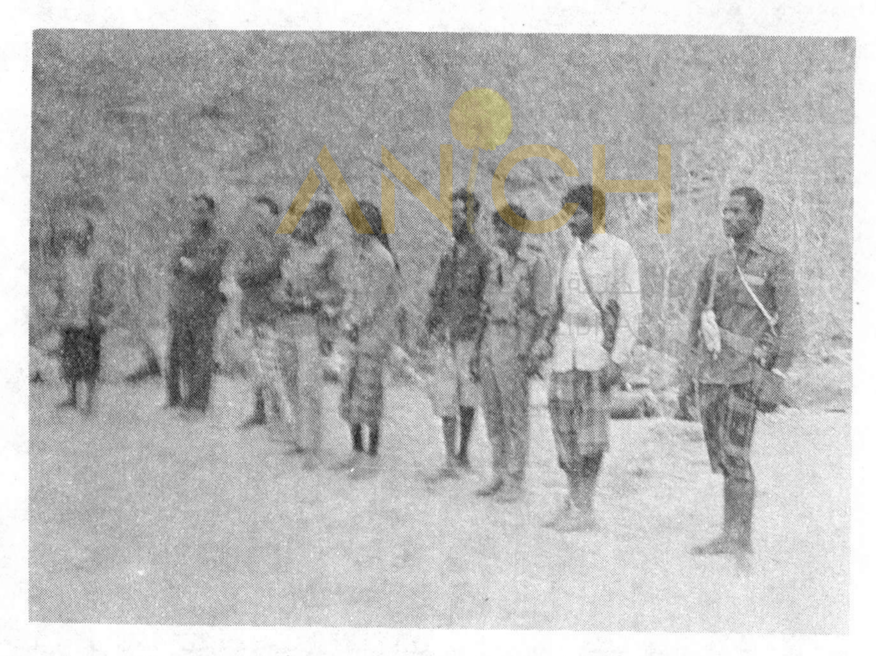
وهنا لم أتمالك نفسي فقفزت على رقبة هذا الملعون — الذي حرمني وحرم نفسه وحرم القائد من جرعة ماء تبل حلوقنا — لأخنقه ولكن الأخوة حالوا بيني وبينه وسرنا واليأس يستحوذ علينا وأصبحنا لا نرى مواقع أقدامنا التي تنتقل هي الأخرى بصعوبة من شدة العطش والجوع .. وبقينا على هذا الحال أربعة أيام أضعنا فيها أحد الزملاء نام عندما جلسنا نستريح في الليل ولم نشعر بفقده إلا ضحى الغد ، وقد التقينا به بعد مدة إذ استطاع أن يصل إلى مخيم الثوار عن طريق آخر ..

وصلنا أخيراً إلى بئر ماء وبقينا عليها قرابة نصف يوم نشرب الماء ثم يندفع من بطوننا إلى الخارج كالنافورة لنعود فنشرب من جديد حتى استرحنا ، وفي هذه الأثناء مر بنا رجل يحمل على جمله حملاً من الذرة تبرع لنا بحفنات منها

ذهب بعضنا يبحث عن حديد ليقليها لنا فيه ، ولما رجع وجدنا نلتهمها نيئة فأخذ نصيبه . وأكلناها نيئة ، وهي أول أكلة نأكلها بعد ستة أيام من الجوع والعطش ..

وتحدث الأخوة الآخرون عن ملاحم بطولية وانتقل الحديث إلى نوادر الحرب ..

وفي آخر الليل امتدت يد أحد الثوار لتطفىء المصباح بعد أن اتكأ كل منا على جنبه متوسداً حقيبته أو حذاءه أو بندقيته أو حجرة.. وكانت الحراسة طوال الليل بالتناوب،وفي الهزيع الأخير كنا نسمع أصوات المدافع والرشاشات في المناطق المجاورة، وبعد صلاة الصبح لم يتمكن زميلنا البدوي من حلب النياق



اللواتي جدن علينا ليلة البارحة بقدح من الحليب هو لا شك بالنسبة لنـــا نعمة لا تعوض. فلقد سبقه عليها أحد البدو من سكان الخيـام فحلبهن ليغذي صغاره الجياع وقد كان – والحق يقال – أولى به منا ...

جولة في المزارع

خرجنا صباح ذلك اليوم لزيارة المزارع التي يزرعهـــا المواطنون فوق قمم الجبال وسفوحها ، معتمدين على مياه الأمطار التي ما انفكت تهطل طيلة اقامتنا هناك ، وكانت السحب الجبلية تمنع الرؤية والأمطار تجعل من الطريق تسلية للدحرجة أو التزحلق ولهذا صرنا « نمشي كما يمشي الوجي الوجل » ..

وعلى امتداد السفوح يسكن مجموعات من الناس في كهوف ومغاور في الجبل أو في خيام مهلهلة .. أكل الدهر شبابهم كما أكلت سنوات الحصار مواشيهم ، يحفرون الأرض بالعصي أو محاريث بدائية ليزرعوا حفنات من الذرة أو البقول ما أن تصفر سيقانها إيذاناً بالحصاد حتى تهاجمها طائرات الانجليز لتحرقهـــا ببراميل النفط انتقاماً من المواطنين وقتلهم جوعاً على رأي السلطة في عمان .. وقد صمد هؤلاء الناس رغم المحن طيلة التسعة أعوام السالفة بدون أرز وبدون سكر وبدون شاي وحتى بدون ملبس متخذين من لحى الأشجار شاياً ومن حشائش الأرض طعاماً ، مفضلين ذلك على البقاء جنباً إلى جنب مـــع القواعد البريطانية وقوات ايران الزاحفة على الخليج مدنية وعسكرية ..

هل البقر أذكى من الابل ..؟

هذا ما يؤكده الناس في ظفار .. فالسلطة لم تكتف بحرق المزروعات وقتل الناس بل تعدتها إلى قتل الحيوانات التي كثيراً ما تهاجمها الطائرات وتقيم فيها مجازر محزنة ، فلقد هاجمت الطائرات في إحدى هجماتها قرابـة ثلاثمئة بعير تجمعت خوف الخطر تركت أكثر من ثلثها ممزقـاً .. وقد روى أحد شهود العيان انه شاهد بعض النياق وقد سقط جنينها من بطنها يتخبط بجانبها وهي لا تزال حية ..

ولم يكن لهذه الابل ذنب سوى انها في حوزة الثوار .. ولكن الطائرات لم تستطع قتل كميات كبيرة من البقر .. إذ ان هذا عندما يسمع أزيز الطائرات يتفرق في المغاور والكهوف والأشجار فلا يظهر منه للطيارين شيء ، ولم يكن ذكاؤه مبرزاً في هذه الناحية فحسب بل انه يفر هارباً عندما يشم رائحة الجنود الايرانيين والانجليز ،ويصدر أصواتاً مذعورة،فيتنبه المواطنون الثوار إلى أماكن جنود السلطان الذين يحاربهم الناس والطبيعة والأبقار أيضاً .

في مستشفى الثورة

وفي ركن من أركان المعسكرات يربض مستشفى الثورة .. مجموعة من الخيام والصفيح وكميات قليلة من الأدوية ، ومجموعـــات كبيرة من المرضى معظمهم يشكون من سوء التغذية وفقر الدم يحوم عليهم طبيب واحد فلسطيني يعيش بين الثوار حافي القدمين عاري الساقين في حاجة هو الآخر للعلاج ..

أنس فينا هذا الدكتور كفاءة لحل مشكلته المعقدة إذ انه يرغب في إتمام نصف دينه .. ولكن المواطنين يرفضون تزويجه من إحدى بناتهم لأنه أحمر اللون وهو بهذا يشبه الكفار.. وكلما خطب امرأة قالت « عفر كفر » أي أحمر كافر واستمعنا له ليلة كاملة يبثنا شجونه ومع ذلك عدنا ولم تحل مشكلة الطبيب .

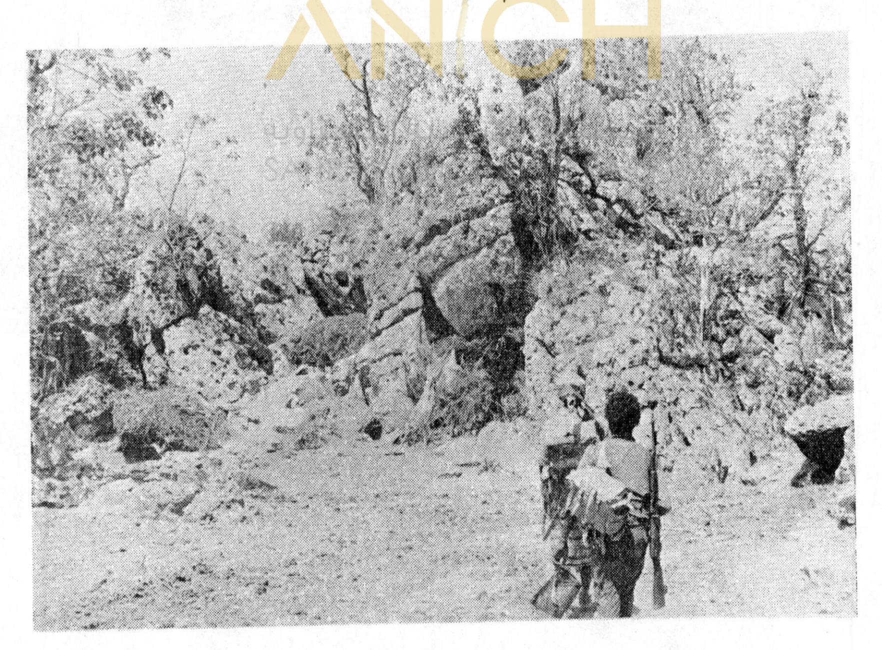
المدارس

وبعد المستشفى الذي يحتاج مرضاه إلى الطعام والذي هو علاجهم الوحيد ، سرنا إلى المدرسة ، حيث يجلس أبناء الثوار على الحصى يقتني كل فصل كتاباً واحـداً .. ويجتهد المدرس في إعطـاء الدروس حسب إدراكه .. وإلى جانب الأطفال الذين يأكلون ويدرسون وينـامون في خيمة واحدة هناك السيدات

اللواتي جئن ليمحين أميتهن .. ولعل القاسم الوحيد بين الكبار والصغار في مدارس الثورة انهم لا يملكون من وسائل التعليم إلا التصميم وحب التعلم كما يشتركون أيضاً في ألبستهم التي ينقصها الكثير ومع ذلك فإيمان هؤلاء الناس لا يوصف، وتصميمهم لا يحد، وإرادتهم لا تلين، وقد كان الترحيب الذي نسمعه أنى ذهبنا هو « مرحبا بخوتنا المسلمين » ولو أن العجائز يرطن بلهجتهن الحميرية أو كما يسمونها « الجبالية » ولكن حديثهن يفسر لنا في حينه ..

طريق العودة

حملنا حقائبنا على ظهورنا عند انبلاج الفجر نغذ السير مع الطريق التي خبرناها منذ أيام ..يضيء الصباح ظهورنا ونحن نتحرك كالأشباح في الجبل ونتتابع في خط متعرج ، وقد تغير في العودة معظم رفاق الرحلة الأولى .. ولما جلسنا عند



منتصف النهار للغداء وشرب الشاي .. كان شبان الثورة يتبارون في القفز الطويل والعالي في الوقت الذي لم نستطع فيه التحرك من أماكننا إلا بصعوبة.. وقد اشتركنا معهم في مباراة التصويب .

وعند العصر وصلنا إلى خيمة الضيافة التي سبق وأن أوينا إليها في الذهاب بقرية « دمقوت » ولقد تغيرت نظرتنا إليها فإذا بها بعد ذلك التعب قصر منيف.

حديث ممتع

وفي الخيمة جلسنا نحتسي الشاي وقد تفرق بعض الزملاء ، بعضهم جلس على شاطىء البحر ربما يتذكر زوجته التي تركها على شاطىء المتوسط .. وبعضهم الآخر ذهب ليستطلع الجبل من جديد .. أما أنا فقد جلست في الخيمة استدرج بعض الثوار الذين بقوا معي للحديث وكان بخيت - رفيقنا في الذهاب والإياب - رجلاً عظيماً من الرعيل الأول الذين فجروا الثورة ، وكان قوي البنية شديدها إذا ما سار في الجبل كأنه يتبختر على فراش وثير يقفز كالغزال فوق الصخور.. ويبلغ الهدف قبلنا ، وبعد الطعام والشاي وهو يقفز في خفة ورشاقة باسم الثغر يذكرني بحياة الكشاف في شريعتهم « يبسم ويهزأ بالصعاب » ... وحتى عندما انطلقت عبارات نارية أمامنا في الجبل باتجاهنا ورد عليها أحد الثوار المرافقين لنا نهره وتقدم أمامنا ليستكشف الأمر فاتضح أن الإخوة اليمنيين نصبوا هدفاً ليمرنوا عليه سلاحهم .

قلت للأخ بخيت وهو يضع كوباً كبيراً من الشاي أمامه .. ألم تتعرض لمواقف حرجة في هذه الحرب يا بخيت ..؟

فضحك.. ثم شرد قليلاً وهو يمسح شاربيه الكثين المتجهين إلى أعلى كعادة العرب ثم قال :

حدث لي أربعة مواقف حرجة كدت أهلك فيها .. قلت :

- هات الأول .

الموقف المحرج

اجتمعنا من امارات الخليج قرابة الثلاثمئة رجل نريد تفجير الثورة في ظفار كان ذلك عام ١٩٦٥ ولما اجتمعنا بالجبل لم نجد لدينا إلا سبع بنادق ومسدساً واحداً فاتفقنا على تخفيض العدد إلى ستين شخصاً.. ويذهب الباقون إلى أعمالهم على أن يعودوا متى يتوفر السلاح ..

وكان وقتها سعيد بن تيمور يدير البلاد بطريقة بدائية ساذجة..تصور انه يقفل المدن عند الغروب ولا يفتح أسوارها إلا بعد طلوع الشمس .. وكان من ضمن قوانينه معاقبة كل من يضع طاقيته على رأسه بطريقة مائلة أو ينتعل نعالاً أو يمتلك جهاز مذياع .

رجع الإخوة إلى أعمالهم وتفرقنا نحن الستين نبحث عن السلاح في مجموعات صغيرة ، وسرت أنا ومعي اثنان من الإخوة نحمل ثلاث بنادق .. وكنت وقتها قد قضيت إحدى عشرة سنة في الكويت لم أر أهلي ولم يروني.. وكانت طريقنا التي انتهجناها تمر بسفح الجبل مقتربة من مدينة صلالة – عاصمة المنطقة – وهي مدينة تتمركز بها قاعدة بريطانية ، وكنت من قبل لم أر الجنود البلوش المجندين في جيش السلطان ، ولكن قيل لي إنهم يعتمون بعمائم حمر . وقد فجر بعض زملائنا ألغاماً في الطرقات الأمر الذي نبه السلطة وصارت تعد العدة لنا ..

وثلاثتنا نسير مع الطريق حتى لمحنا أمامنا على الطريق اثنين يجلسان ويلعبان لعبة بالحجارة والبعر « شبيهة بلعبة الخربقة عندنا » فظنناهما من المواطنين .. كنا نحاور أنفسنا هل نسلم بتقبيل الخد كما هي العادة عندنا أو نكتفي بالتسليم من بعيد فمررنا بجانبهما وقلنا : السلام عليكم .

فقفز الاثنان وفوجئا بوجودنا فإذا بأحدهما عريف والآخر نائب عريف وخلفهما سرية من العسكر تخندق على الطريق لقطعها على الثوار ، فقال العريف– وخيوطه أصبحت واضحة لنا – : تعالوا جاي .

– لماذا ..؟

قال : ما تخافوش .. تعالوا ..

فوقفنا في أماكننا وهنا جرى نائب العريف للرشاش الذي لم نلحظه قبل ذلك وانبطح عليه ، فأطلقنا عليه النار وقتلناه ، فأسرع العريف ليحل محله فقتلناه قبل أن يصل .. وهنا انطلقت علينا النار بكثافة من الخندق الذي أمامنا ، وكان للخندق ممر واحد باتجاه الرشاش، فكلما ظهر أحد الجنود نتركه حتى يبرز نصفه الأعلى فنطلق عليه النار فيسقط على زملائه ..

ولما كثر إطلاق النار تدحرجنا من سفح المرتفع وصعدنا مع الوادي حتى دخلنا الغابة وراء الجنود ، فجلسنا تحت شجرة نستريح من الدوار الذي أصابنا من جراء الدحرجة الطويلة التي لم نتعود عليها من قبل .. وكنا نرى الجنود وهم يطلقون النار بغزارة إلى الجهة التي هاجمناهم منها أولاً،ونشاهد الضابط الانجليزي وهو يمزق ملابسه بعد أن عرف أننا ثلاثة وأننا أسقطنا من جنوده سبعة ..

ولما تحدثنا بعد ذلك اتضح أننا الثلاثة في كل مرة نطلق النار مجتمعين على هدف واحد .. وواصلنا السير حتى دخلنا إلى مضارب قبيلتنا فتركت زميلي وذهبت أستفسر من رعاة الغنم علهم يدلونني على أهلي .

فسألت شابين يرعيان غنمها عن منتجع القبيلة،ولم أستطع أن أسألهما عن أهلي مخافة أن يعرفاني من الثوار خاصة وأنني ألبس لباساً عسكرياً ملطخاً بالطين، من دحرجتنا السالفة .. فلم يجيبا على استفساري .. فتركتهما ورجعت إلى زميلي ، وأنا سائر سمعت أحدهما يقول للآخر بلهجتنا المحلية : هذا الرجل شكله مثل أخيك بخيت ..

فالتفت وقلت : نعم أنا هو .

وكان الشاب الآخر هو أخي وقد تركته وعمره ست سنوات ووجدته الآن وعمره سبع عشرة سنة ، فتعانقنا بعد أن تعارفنا ودلني على خيمة أهلي فأتيتها أنا ورفيقي حيث ذبح لنا أخي شاة ، ونحن في انتظار العشاء إذا بسيارة الجيش

تسرع نحونا في اتجاه الخيمة .. فتأكدنا أن الجنود يلاحقوننا فخرجنا من الخيمة وأخذنا وضع انبطاح لاطلاق النار على أي جندي ينزل من السيارة،ولحسن الحظ لم ينزل منهم أحد وإنما استفسروا من أخي عن ضيوفه فأجاب « أن لا أحد عندي » وقد كانت هذه عادتهم من قبل فذهبت السيارة.ولو أطلقنا النار عليهم لأقدم الجنود على قتل جميع أفراد العائلة وأحرقوا خيمتنا بمن فيها ..

ولما عدنا إلى الخيمة قالت أمي وهي منزعجة : يا بني أرجوك ألا تأتي إلينا ثانية ..

وغيّرنا ملابسنا ، وانطلقنا بعد أيام إلى الجبل .. كان هذا عام ١٩٦٥ وقد سقط في أيامها أول شهيد من شهداء الثورة وهو « سعيد بن غانم » يوم ٩ من يونيو ، ومنذ ذلك الحين اعتبر هذا اليوم تاريخ ابتداء الثورة .. وقد كان سعيد في مجموعة أخرى

قلت صحيح إن هذا موقف محرج فاذكر لنا الموقف الثاني .

الموقف الثاني

نصبنا خيمنا ليلاً بإحدى المناطق بواد من وديان المناطق الداخلية ، وعند الفجر قام أحد الثوار ليشعل النار لإعداد الشاي والفطور ، وقد كان مطمئناً فلم يكتشف المنطقة قبل اشعال النار كما جرت العادة .. ولم يعلم زميلنا أن العدو قد تمركز فوق القمم المطلة على الوادي استعداداً لمباغتتنا في الصباح .

أشعل الزميل النار،وما ان ارتفع لهبها حتى انهالت علينا ثلاث قنابل اطفأت النارفقبض كل منا على بندقيته وغطائه وعتاده وجرى كل إلى طريقه على أن نخرج من الطوق .. فلقد عرفنا اننا مطوقون ، وعدت أنا وهذا الأخ – وأشار إلى شخص أسمر يجلس بجانبنا – وشخص آخر وذلك لمسح محل مبيتنا مخافة ان نكون قد نسينا شيئاً .. وعندما وصلنا إلى الموقع واقتربنا من النار اشعلتها الريح فلاحظها العدو فأمطرنا بوابل من القنابل سقط بعضها على النار ولم نصب.

وانسحبنا إلى الجبل فالتقينا بثلاث نسوة منزعجات قلن لنا ان الجنود يتبعونهن. وكانت معنا أوراق وخرائط أعطيناها لزميلنا ليعطيهاللنسوة على أن نتصدى نحن للجنود ..

ولما وصل زميلنا إلى النساء وجلس معهن ليعطيهن الأوراق ، ـ وكان ظهره جهة الجند ـ لاحظنا مجموعة من الجنود تسير نحوهوقد حالت بيننا وبينه وكانت ظهورهم مولية لنا وقد ظنناها مجموعة من الثوار ، فسرنا نحوهم حتى أصبحتبيننا وبينهم خطوات ووقفت على صخرة وقلت صائحاً ..

- انتم من ؟

فردوا هم أيضا بعد ان التفتوا الي : وأنت من ..؟

واستمر حوار الاستفسار برهة بيننا ،كل منا يحاول معرفة صاحبه قبل الآخر ، وأخيراً قال أحدهم : احنا الجيش ..

- قلت : جيش من ..؟

قال : جيش السلطان ..

وخفت أن يعرفوني فيطلقوا علي النار بعد أن عرفتهم اعداء .. فقلت له مردفا ..

آه..أنتم جماعتنا ظنيتكم الثوار..ونزلت من الصخرة قافزاً وهم قبالتي وارتميت أرضاً وأصليتهم برشاشي ، وما أن فعلت ذلك حتى فروا جميعاً وتفرقوا في الشعاب .. والتحقنا بجماعتنا عند المساء دون أن نلحق بأذى وهكذا سلم الله ..

الموقف الثالث

كلفتني الثورة بحمل معاشات أسر الشهداء إلى داخل المنطقة التي تسيطر عليها قوات السلطان ، وفي داخل المنطقة عرجت على ابنة عم لي متزوجة هناك

فبت عندها وفي الصباح وأنا متمدد في كهف بجانب خيمتها جاءتني تجري وترتعد وهي تقول :

يا ابن عمي. قم ان تسع سيارات من الجيش تقف الآن فوق الصخرة التي أنام أنا تحتها ..

فأطللت برأسي فإذا بالجنود وقد نزل معظمهم من السيارات مدججين بالسلاح فوق قمة الصخرة ، بعضهم يجلس وبعضهم واقف يستكشف المنطقة ..

وفكرت في الأمر ، إذا انا أطلقت النار سيحرقون كل المنطقة ، وإذا أنا بقيت سيقبضون علي ، واذا أنا خرجت سيقتلونني .

واخيراً اهتديت إلى فكرة ، فأمرت ابنة عمي أن تحضر لي ثوبها وغطاء رأسها .. فأحضرتها لي « الثوب هو قميص طويل الذيل قصير من الأمام تلبسه المرأة في عمان واليمن » فلبست الثوب وغطيت رأسي بمنديلها وخرجت أنا وهي كامرأتين ليجلبا الماء من الوادي ، ومررت أمام الجنود وكدت اتعثر في الثوب .... وعجبت لطوله مع انني أطول من ابنة عمي ، ولما نزلت إلى الوادي وتواريت عن أعين الجند خلعت لها الثوب فإذ بي قد لبسته مقلوباً فالجزء الطويل من الأمام والقصير جاء من الخلف الأمر الذي كشف ساقي من الخلف للجند ولم ينتبهوا لذلك.. فناولتها ثوبها وابتعدت عن المنطقة ، وقد أصرت المرأة أن تذهب معي ولكنني راوغتها حتى تخلصت منها ..

موقف آخر

مرضت في الجبهة فنقلوني إلى أهلي للعلاج على أن يرجع أحد الزملاء لي بعد شهر ، وبقيت الشهر ولم يرجع لي أحد ولا زال المرض يهسني فقررت الالتحاق بموقع عملي رغم ضعفي ، وأجرت أحد الأشخاص ليحمل لي زادي وبندقيتي

ويخبر بي الطريق ، وعندما توغلنا في الجبل التقينا براعي ابل رافقنا ليجلب زاده من أحد الأودية حيث يخبئه هناك .

وعندما صعدنا إلى الجبل لننحدر إلى الوادي الذي فيه عين ماء نملأ منها أوعيتنا فارقنا الراعي .. وسرنا نحن الاثنين ، ولا أدري كيف تملكني شعور داخلي بأن الجند في انتظارنا، وأصبحت كأنني أراهم، فقلت لرفيقي الذي يسير أمامي أعطني بندقيتي فأعطاها لي وهو يتساءل ، وما أن مشينا بضع خطوات حتى ارتمى رفيقي على الأرض وهو يقول الجيش الجيش .. فرأيت في ذلك الحين اثنين من الجند خارجين من العين باتجاه الطريق التي تركناها خلفنا وبندقيتيهما على كتفيهما ، ففهمت أننا وقعنا في كمين ولا فائدة من التصدي إلا بالحيلة ، فقلت لزميلي قم واعمل نفسك تتحسس شوكة في رجلك ، فقام وأصبحت أقود زميلي ، واتجهت نحو شجرة كبيرة بجانب العين ، ولاحظت الجنود وقد توزعوا بين الصخور المحيطة بالعين ، وقد جلس اثنان برشاش وسط العين .

وطلبت من زميلي أن يكون عادياً على اعتبار أننا رعاة من تلك المناطق وصرنا نتحدث في لا شيء ونحن في ظل الشجرة جالسين ونضحك بصوت عال .. وكان صاحبي يبل ريقه بين الحين والآخر بجرعة ماء من « مطرته » فلقد كان الوقت منتصف النهار والشمس على أشدها .. وصار الجنود يضجرون من حر الصخور إذ أن الشجرة هي الوحيدة في المنطقة وقمنا باشعال النار لنعد الشاي .. وهنا تحرك نحونا ضابط المجموعة ومعه اثنان من الجنود يحمل بندقيته بين يديه وكأنه يقتنص ذئباً .. وقلت لزميلي إذا كان الضابط انجليزياً يجب أن نطلق عليه النار فور اقترابه منا لانه سيكتشفنا عندما يفتش البندقية .. أما إذا كان ايرانياً أو باكستانياً أو بلوشيا فسنحاول معه دون اطلاق النار لأن في قتل الضابط موتنا أيضاً .

فلما اقترب منا الضابط إذا به بلوشي فقمت من محلي وتركت بندقيتي على

الأرض – في سذاجة متعمدة – كما يفعل أي مطمئن وسامت عليه وأنـــا أقول يعيش السلطان وجيش السلطان ... فجلس على ركبتيه بجانبي فناولته كأساً من الشاي فرفض وهو يقول : أنتم فقراء ، نحن عندنا التمر والدقيق ، والسكر والشاي ، وصار يحصي كل ما عندهم وأنا أتظاهر بالتعجب من كثرة تموينهم حتى الحلوى والشيكولاته وسألني عن قبيلتي وعملي ، فاسميت له قبيلة الراعي الذي رافقنا منذ قليل .. وقلت انني راعي غنم .. فصار يسألني عن المرعى والكلأ وعن حماية جيش السلطان لنا.. وكان جنوده يتوقون برؤوسهم من فوق الصخور ضجرين قلقين من بقائهم على هذه الحالة ..

وأخيراً طلب مني الضابط ان أريه رصاصة من حزامي ليعاينها .. وكان في حزامي نوعان من الرصاص النوع الانجليزي الموجود في المنطقة وآخر عربي يستعمله الثوار فقط فتظاهرت بأنني أعطيه الحزام كله : فقـــال : لا.. لا.. رصاصة واحدة فأخذت واحدة من الصنع الانجليزي وقدمتها له .. فعاينها ثم قال لي تصور أن هذه الرصاصة صنعت منذ احدى عشرة سنة .. فتظاهرت بالعجب وأنا أقول :

منذ احدى عشرة سنة ولا زالت تستعمل في بندقيتي..؟ يا لدقة الصنع وذكاء الانجليز وخبرتهم ..

فهز رأسه علامة الموافقة والاستحسان .. وودعنا وانصرف .. وأومأ إلى الجنود فتركوا الطريق التي سدوا منافذها قبل قليل وانسحبوا وأخلوها لنا ..

وما أن انحدروا من الجبل حتى مرقنا كالسهم فارين بجلودنا .. وفي طريق عودتهم صادفهم الراعي فأخبرهم اننا من الثوار .. فاقتفوا أثرنا متتبعين لنـــا ولكن بعد فوات الأوان ..

وهكذا نجونا من الموت بأعجوبة ..

الفتى الاسمر

وبعد أن أكمل بخيت سرد مواقفه المحرجة ، التفت إلى الشاب الأسمر الذي أشار اليه بخيت أثناء حديثه بأنه كان معه عندما أسقطت القنابل على موقد النـار ..

وقلت له : وانت هل لك من مواقف كانت محرجة..؟.. فأجاب :

حدث لي الموقف الذي حدثك عنه بخيت.. اذ انني كنت معه ، أما الموقف الآخر فكان في بداية التحاقي بالثورة ..

هربت من الجيش عندما رفضت الانصياع لأمر الضابط الباكستاني في أن أسجن نساء عمانيات داخل المعسكر .. ولما هددني .. رددت عليه التهديد .. وعلمت من صديق لي أن الضابط ابرق للقيادة فأعطته الاذن باعتقالي في الصباح فهربت ليلاً ..

ولكن الاخوة في الثورة لم يثقوا في وجعلوني ستة أشهر تحت المراقبة وبدون سلاح .. وأخيراً جعلوني مع مجموعة على قارب ينقل التموين من عدن ..

حملنا من عدن قارباً كبيراً أوسقناه بالتموين . وكانت حمولته كبيرة لأن المنطقة كانت في حاجة إلى كل كيس أرز وكنا على ظهره قرابة الستين رجلاً ..
وقد كانت الرحلة في بدايتها هينة ورائعة ، ولكن ما أن اقتربنا من ساحل المنطقة حتى هاجمتنا الطائرات وصارت ترمينا بوابل من النيران ونحن نزوغ بقاربنا يمنة ويسرة .. ولم تطاوعنا أنفسنا أن نرمي بجزء من الحمولة في البحر ليخف القارب ويكون أقدر على المراوغة مفضلين سلامة القارب جميعاً .. أو غرقه جميعاً ..

وفي إحدى الغارات أصيب المركب فتناثر بمن فيه ومـا عليه قطعاً صغيرة وسبحت صناديق الشاي فوق المـاء وكذلك الناجون منا .. وغاص السكر

والأرز إلى الأعماق وكذلك من أصيب من القوم ..

وسبحنا نحاول الابتعاد من الخطر ولكن الطائرات الانجليزية أمطرتنا بوابل من نيران رشاشاتها وصارت تمشط المنطقة ، فأصابت العديد من الزملاء الذين نجوا من الغرق أولاً ، وسبحت إلى الشاطىء القلة التي استطاعت أن تسبح وتراوغ من اصابات الرشاش بالرغم من جراحها وآلامها ..

ولما اقتربنا من الشاطىء الجبلي كان الرصاص يصيب الصخور فيفتتها وتتطاير وكأنها شظايا قنابل.. ولما وصلنا الشاطىء كنا سبعة واثنين آخرين من جماعتنا ولكنهما على درجة من الضعف لا تسمح لهما بمواصلة السباحة ، فسبحنا إلى الأقرب وانتشلناه ، وسبح أحد الأخوة وكان أقوانا إلى الأبعد الذي كان يتأبط صندوقاً من الشاي ، وقد كسرت يمناه كسرين وكذلك رجله اليسرى فهو يسبح برجل واحدة ويد واحدة ..

وكان زميلنا الذي سبح لإنقاذه لم يكن على دراية بكيفية انتشال الغريق فكنا ننظر إليه حتى وصله وتماسكا بالأيدي وغاصا معاً وابتلعتهما الأمواج ..

انه لمنظر محزن غطى منه بعضنا وجهه .. وجلسنا ثمانية أشخاص مثخنين بالجراح .. مبتلي الثياب والحزن يعصر قلوبنا.. لا ماء .. لا أكل .. لا سلاح.. ولا رفاق ... وكشف الشاب الأسمر عن ساقيه وفخذيه فكانت آثار الرصاص لا زالت غائرة ومتناثرة في بدنه .

دور الفتاة

وكانت تشاركنا في الاستماع بالخيمة فتاة تتمنطق بحزام مليء بالذخيرة وتضع على ركبتيها بندقيتها الشرقية .. وهي تبتسم بين الفينة والأخرى .. ولما سألت عنها قيل انها مريضة تشكو من « الروماتيزم » في رجليها،ومع ذلك منذ تسعة أيام وهي تسير حافية القدمين إلى أن وصلت إلى هنا .. ولقد مررنا في الطريق



على اثني عشر رجلا يتبادلون حمل امرأة تعسرت ولادتها ، وما أسوأ أن يحمل الإنسان على الأعناق في الجبل - فالثوار يحملون جرحاهم على ظهورهم مسافات بعيدة بعضها يتجاوز العشرين يوماً ..

وأخـيراً

وفي الصباح أقلتنا سيارة لنصـل إلى أقرب مطار حيث أقلتنـا الطائرة الصغيرة إلى عدن ومنها إلى بيروت فطرابلس .. ولقد كنا طيلة الرحلة فوق السحـاب أو في الأرض نتذكر بطولات الثوار في جبال ظفـار ونتعجب من تجاهل العرب لهم بالرغم من أنهم يدافعون عن حرية جزء من أجزاء هـذه الأمـة ..

الصحراء العربية



ديسمبر ١٩٧٢

هناك حيث يمور المحيط الأطلسي بأمواجه العاتية مداعبة بعنف رمـــال الشاطىء العربي الصفراء ..

هناك حيث تفجرت ثورة المرابطين من أعماق الصحراء لتحفظ للعرب ماء وجوههم في سهول الأندلس ولو إلى حين ..

هناك حيث تنبسط الصحراء بطلحها وسدرها وعرعارها، هناك بين الرمال والمحيط وبين الطلح والسدر والعرعار، وبين الحاضر الأليم والماضي المجيد تنتشر خيام العرب تخفق بها الأرواح .. حانّة إلى أمة عزلت منها متنقلة فوق ظهور الجمال في هوادج تخفي الكواعب الأتراب .. ورحال ينتصب فوقها شعث من الرجـال غبر لوحت بهم الأعاصير والشمس فزادتهم على سمرة العرب سمرة .. ولكنها لم تستطع أن تخفي بريق الأمل في أعينهم المتطلعة إلى مستقبل أفضل.. تلك هي الساقية الحمراء ...

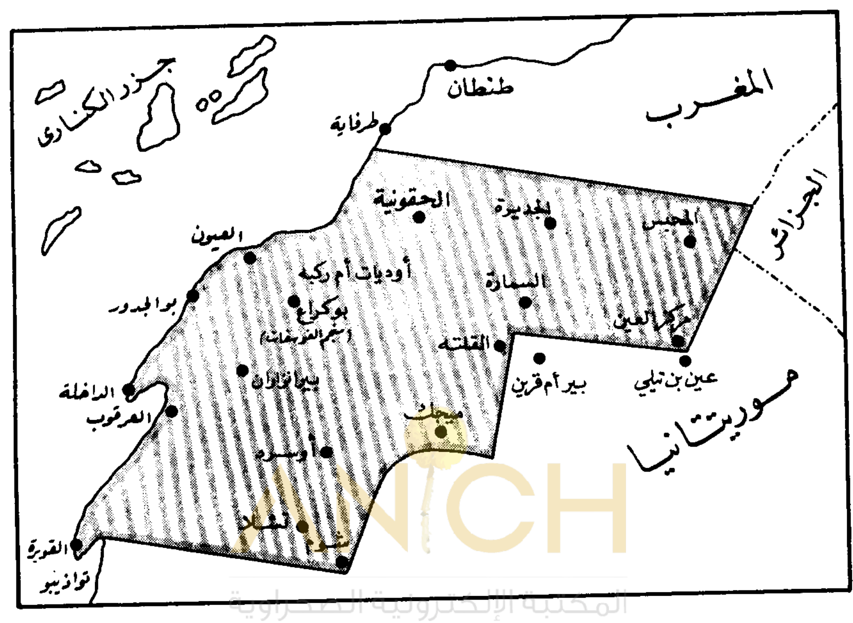
لم تكن الساقية الحمراء نكرة تحتاج إلى تعريف فهي في ذهن العرب في المحل الاشرف في ذكرياتهم أيضاً .. ولكن شهرة اسمهـــا في أرض العرب اقترنت بكثير من الخرافات التي جانبتها الحقيقة .. ولعله مما زاد في تعتيم صورتها لدى المواطن العربي وقوعها تحت الاستعمار الاسباني الذي فرض عليها العزلة واعتبرها

منطقة عسكرية ليس من السهل الدخول إليها والتنقل بين أحيائها ...

لم أتمكن من العثور على تاريخ مفصل لمنطقة الصحراء هـــذه ، وذلك لأن التاريخ العربي لا يفصل مؤرخوه بين منطقة وأخرى وخاصة في المنطقة الواقعة غربي مصر فيطلقون عليها بلاد الغرب وأهلها المغاربة .. أو يطلقون على بلاد المغرب الأقصى بلاد السوس ... ولهذا لا يجد الباحث - إلا ما ندر - حديثاً مفصلاً عن الساقية الحمراء ووادي الذهب .

فالوطن العربي بعد الفتح العربي الإسلامي كان وحدة واحدة ووطناً واحداً يخضع لإدارة واحدة في بغداد ومن قبلها دمشق ، وقبل ذلك المدينة المنورة ، ولم تكن القاهرة أيام « المعز » أو القيروان أيام « عقبة » إلا عواصم فرعية لإمداد الجيش المحارب بالسلاح والرجال والمؤن لمناطق تمتد غرباً بعيدة عن مركز الخلافة .

وبعد سقوط الأندلس وتمطى الأسبان إلى الشمال الافريقي وبلاد المغرب .. أنشأوا لهم مراكز عسكرية تجارية على الشاطىء العربي في طرابلس الغرب وفي بعض المناطق على المحيط الأطلسي ، ولقد امتدت مع الامتداد الاسباني جارته البرتغال إلى غرب أفريقيا، ويذكر أنه في عام ١٨٨٠ وصلت أول قافلة أسبانية وتمركزت على شاطىء المحيط في منطقة الساقية الحمراء وعلى التحديد في منطقة « العيون » حيث استقرت وبدأت في بيع البضائع للسكان عن طريق المقايضة بالسمك ، وتحولت التجارة إلى ثكنات عسكرية صغيرة كما هو الحال في الهند عندما تحولت « شركة الهند الشرقية » إلى استعمار انجليزي لم تتخلص منه البلاد إلا بعد كفاح مرير طويل قـاده الزعيم غاندي إلى النصر ، وعندمـا غزا الفرنسيون موريتانيا من جهة الجنوب في أوائل هذا القرن وقف سكان الصحراء الموريتانيون وأهل الساقية الحمراء وقفة رجل واحد بقيادة الزعيم (ماء العينين)



الذي اتخذ من بلدة (الصمارة) منطلقاً له ومركزاً للمجاهدين ، أقلق راحة المستعمرين في معارك دامية ، كل ذلك والأسبان يتمركزون على الساحل فقط ، ولكن فيما بين عامي ١٩٣٦ – ١٩٣٩ ، والحرب الاسبانية التحريرية على أشدها تغلغل القبطان (ديل أورو) مع الفرق الرحالة إلى داخل الصحراء وبدأ الاحتلال الفعلي للمنطقة .. ولم يثن أسبانيا عن احتلالها للمنطقة ثورة الجيش عام ١٩٥٦ عند استقلال المغرب ، فلقد ثار الجيش الصحراوي المتواجد ضمن القوات الاسبانية واشتبك مع الاسبان في معركة دامت خمسة أيام



عربية ولا وجود لاسبانيا إلا في قواتها المتمركزة في المدن بجيوشها وفي الصحراء بدورياتها وفي الموانىء بأجهزتها .

لماذا تصر اسبانيا على البقاء ؟..

لهذا السؤال إجابة لدى الاسبانيين أنفسهم فبالرغم من تواجدهم بالصحراء منذ عام ١٨٨٠م لم يفكروا في ضم الصحراء واحتلالها عسكرياً بصورة نهائية إلا أخيراً .. والسبب هو اكتشاف الفوسفات بكميات كبيرة في منجم « بوكراع » الذي يبعد عن مدينة العيون بحوالي مئة كيلومتر والذي قدر احتياطيه بـ(١٢٠٠) مليون طن بمعدل ٧٠٪ من المعدن الخام ..

كما اكتشف الحديد في منجم « اغراشا » وقدر احتياطيه بـ (٢٠) مليون طن وأخيراً اكتشف النفط في (وديات أم ركبة) على يد الشركة الفرنسية (س. ج. ج) ... و « وديات » جمع تصغير لوديان و « أم ركبة » هي نبات ينبت في الوديان تأكله الحمير .. إلى جانب الثروة السمكية الهائلة إذ أن مجموع الكمية التي اصطيدت عام ١٩٦٩ حسب الاحصائيات الاسبانية في المنطقة بلغ ٦٦٧١ طناً .

ورغم تواجد هذه الثروات كلها واحتياج أسبانيا لها وتمسكها بالصحراء فلا ندري كيف نفسر قول وزير الدولة الاسبانية للرئاسة الأميرال «كاريرو بلنكو» عندما وقف بالعيون يوم ١٦ من مايو ١٩٦٦ ليقول في خطبة ألقاها : « لم نجن من هذه الأراضي أي كسب مادي بل أعطينا كل ما استطعنا ..» .

وهكذا تطبق أسبانيا في الصحراء قول المثـــل العربي : « خرشفا وسوء كيل » تأخذ الخيرات وتنكرها . وتستعمر الشعب وتدعي أنه حر .. ولله في خلقه شئون !!

كيف يعيش سكان الصحراء ...؟

يبلغ عدد سكان الصحراء حوالي ٥٦٢٩٧ نسمة حسب التقديرات الاسبانية، ويقول السكان العرب انهم أكثر بكثير من هذا العدد ..

وينتشر السكان في منتجعات بدوية تعتمد على الرعي وتعشق الحرية ويسكنون في خيم سوداء تصنع من صوف الأغنام، إذ أن ماعزهم قصير الشعر كالغزلان لا يستفاد منه .



ويتبعون الكلأ كلما نزل الغيث تراهم في ترابه ، غير آبهين بتشديد السلطات الاسبانية التي تقيد تنقلهم .. وهم يملكون ثروة حيوانية كبيرة إذ تقدر السلطات الاسبانية عدد الإبل بـ (٥٦٢٤٧) بعيراً ، والماعز بـ (١٤٥٤٠٨) ، والضأن بـ (١٧٩٧٥) .

وفي المدن حيث يتواجد الأسبان يقطن العرب في أحياء شعبية مظلمة في غالبها بالرغم من ان للأسبان في العيون والداخلة والصمارة والقويرة محطات كهربائية ولكنها لإنارة الأحياء التي يقطنها العمال الاسبان والجنود . والطرق

في الصحراء غير معبدة في غالبها اللهم إلا باستثناء الطريق بين العيون – العاصمة – ومنجم بوكراع وذلك لأن الشاحنات المحملة بالفوسفات تستعمله للوصول إلى ميناء العيون حيث يشحن ويصدر إلى أسبانيا للتصنيع .

كما أن الطرق في الأحياء الأسبانية داخل العاصمة معبدة والبيوت أنيقة ومكيفة تحتوي على معظم وسائل الراحة « حدائق وحمامات » ..

وإلى جانب الرعي يشتغل سكان الصحراء بالتجارة وهم تجار مهرة وقد كانت موريتانيا أهم سوق لتصريف تجارتهم القادمة من جزر الكناري وهذه الجزر هي الأخرى لا تزال تحت الاستعمار الاسباني.. وقد فرضت أخيراً القيود على العملة في موريتانيا بعد خروج الأخيرة من فلك الفرنك الافريقي واعتماد الأوقية كعملة موريتانية خاصة بها . وقد أضرت هذه القيود بتجار الصحراء ..

وإلى جانب الرعي والتجارة يمارس سكان الصحراء هواية الصيد المحببة لهم.. البحري والبري ، ورغم أن الإدارة العسكرية منعت صيد الغزلان الموجودة بكثرة في التراب الصحراوي إلا أن الهواة للصيد يتسللون من موريتانيا لاصطياد الغزلان فالحدود البرية هي « ١٥٧٠,٥ » كيلومتر ولهذا لا يستطيع الاسبان مراقبتها ومنع المتسللين الذين يخبرون مسالك الصحراء ووهادها بعكس الحدود البحرية فبالرغم من أنها (١٠٦٢) كيلومتراً ومع ذلك فلا تخاطر سفن الصيد الأخرى من اختراق مياهها الاقليمية لتواجد الأسطول الاسباني في المحيط قرب الصحراء .. كما أن أسطول الصيد الاسباني يجوب مياه المحيط المقابلة لموريتانيا بعد أن منح حق الصيد في مياهها وتأسيس شركة لحفظ الأسماك الاسبانية بنواذيبو المدينة الموريتانية على المحيط ومقر شركة « ميفرما » التي تستخرج حديد الزويرات ..

كيف تُحكم الصحراء ..؟

يحكم الصحراء حاكم عسكري أسباني يسمى الحاكم العام .. وله السلطة المطلقة في المنطقة بالرغم من وجود مجلس يسمى مجلس الجماعة يتكون من أربعين شيخاً أو أربعين ممثلاً – على حد رأي الأسبان – من الشعب ، وستة عشر ممثلاً للعمال والذين هم في الغالب من الاسبان وشيخي بلدية العيون والداخلة ولهذا المجلس سلطة صورية فالحاكم العام هو كل شيء،وحتى إن كان للعرب الصحراويين ستة نواب في مجلس « الكورتس » الاسباني .. فالعملية لا تعدو أن تكون تمثيلية الغرض منها ربط الصحراء بأسبانيا أكثر فأكثر ..

العيون

العيون في الصحراء مبثوثة في كل مكان لمراقبتك إذا قدر لك وأن زرتها ، وهذا في الغالب لا يتسنى لك إن كنت عربياً أو صحفياً بالذات .

غير أنني أقصد الحديث عن مدينة العيون – عاصمة الصحراء – وهي مدينة صغيرة أنيقة تتخللها بعض الشوارع المعبدة وبها مطار كبير مجهز بأحدث الأجهزة الحديثة وصالح لنزول أكبر الطائرات العصرية .. وللمدينة أيضاً ميناء صالح لرسو السفن يقع غربي المدينة بحوالي ٢٤ كيلومتراً – إذ أن المدينة لا تقع على ساحل المحيط مباشرة – يربطه بالعاصمة طريق معبد ، ويصدر عن طريقه فوسفات منجم « بو كراع » وبالمدينة فندق سياحي جميل يقضي به الجنود القادمون من جزر الكناري إجازاتهم كما يؤمه الزوار الراغبون في السياحة من البلاد الاوروبية ، كما أن الجنود الصحراويين هم أيضاً تعج بهم مدينة « لاس بالماس » – عاصمة جزر الكناري – فهم أيضاً يقضون إجازاتهم بها .

ويقدر عدد سكان مدينة العيون بـ « ١٥٥١٨ » ساكناً . ويوجد بالعيون محطتان للاذاعة المسموعة إحداهما عاملة والأخرى احتياطية، والإذاعة العاملة

بقوة خمسين كيلوات تبث برامجها باللغة الاسبانية ولها حصة بالعربيــة لتوجيه المواطنين إلى أن البقاء مع أسبانيا هو قمة الوعي والفهم !! وبها أيضاً محطـــة للاذاعة المرئية تذيع على القناة (٥) كما يوجد بها مسرح صيفي خاص بالاسبان..

وتصدر بالعيون جريدة أسبوعية عنوانها « الصحراء » وهـــذه الجريدة بالنسبة للصحراويين تعتبر اسماً على مسمى .. وبالمدينة مستشفى حديث يؤمه الاسبان والعمال الاسبان ولا يستشفي به العرب إلا من له حظوة لدى الاسبان .

فالعرب قد خصص لهم مستوصف صغير بأطراف المدينة لمعالجتهم بما يكفل عدم انتشار المرض وحتى لا يصبحوا مصدراً لنقل العدوى إلى أبناء الاسبان القادمين وبيدهم مشعل الحضارة لإنارة المنطقة !!

الداخلة

وهي المدينة الثانية بالصحراء وعدد سكانها حوالي « ٥٤٥٤ » نسمة ويوجد بها ميناء لاستقبال البضائع وتصدير السمك كما يوجد بها مطار أصغر بقليل من مطار العيون ، وبها مستشفى وإذاعة مسموعة قوتها ١٠ كيلووات وتوجد بها قاعدة عسكرية أسبانية وقد آنستها أخيراً قاعدة أمريكية ، تلك التي رحلت من الجمهورية العربية الليبية وربما أسماها الأمريكان قاعدة (أيزنهاور أوروجرز) إذ أن هويلس سيىء الطــالع فقد رحل من طرابلس لشؤم اسمه على أمريكا ..

الصمارة

وتقع في الشمال الشرقي على بعد ٢٠٠ كيلومتر من العيون وعدد سكانها حوالي « ٢١٣٠ » ساكناً وبها مسجد الشيخ ماء العينين وقبره ، ويعتبر الصحراويون هذا الرجل أحد رجالاتهم الصالحين في المنطقة ويحتفظون له بتاريخ ناصع في الجهاد

ويتخذون من قبره مزاراً لهم.. ويوجد بالصمارة جهاز للاذاعة المرئية مزود بآلة سينمائية لعرض الأفلام في قاعة معدة بالمدينة وهي أفلام دعاية أسبانية ..

وبها مستوصف يحوي بعض الاسرة لاستقبال المرضى وايواء الذين هم في حالة خطرة كما يوجد بالمدينة مطار ولكنه أصغر بكثير من مطاري العيون والداخلة ويربطها بالعيون طريق غير معبد ، ولكنه صالح لسير العربات .

الحياة الثقافية

قل ما تجد إنساناً بالصحراء لا يجيد القراءة والكتابة فهم جميعهم شغوفون بالثقافة ميالون للتعلم وخاصة في أمور دينهم وحفظ ما تيسر من القرآن الكريم ، ولهذا نجد في كل منتجع فقيهاً .. أو كما يسمونه « مرابط » ليعلم الناشئة القراءة والكتابة وقد تخصصت قبيلة اليعقوبيين في التدريس كما تخصصت قبيلتا الرقيبات والزرقيين في الحرب ..

ولما جاء الاسبان أرادوا أن يفتتحوا بعض المدارس في عواصم الأقاليم وذلك لتعليم الناشئة اللسان الاسباني كتابة ومخاطبة وتلقينهم تاريخ اسبانيا وأمجادها وربطهم بها كما كانت تفعل ايطاليا في ليبيا أيام عنجهيتها ..

إلا أن البدو أبوا أن ينتسب أبناؤهم لهذه المدارس ونفروا منها ورفضوا تعليمهم الكفر على حد قولهم في مدارس الكفار ، ولهذا لم نجد في المدارس التي افتتحها الاسبان — إلى جانب أولادهم — إلا قلة من أبناء العرب وهؤلاء لا يتجاوزون المرحلة الابتدائية باستثناء أولاد المقربين الذين يستكملون دراساتهم « بلاس بالماس » عاصمة — جزر الكناري — أو بمدريد ..

الانتفاضة الثورية لعرب الصحراء

ذكرت ان الصحراويين ميالون للحرية، شديدو الاعتزاز بعروبتهم ودينهم ، يتتبعون أخبار العرب ويعرفون ما يدور في كل قطر .. والشرق له عن الساقية الحمراء فكرة مشوهة فهي على رأي العامة مركز للفقهاء والمشعوذين والسحرة.

تتجسد صورتها في الفقيه المغربي الذي يكتب الأحجبة فيجلب الحظ والحب وقد يغضب فيجلب النحس والفرقة والكراهية ، وربما ذبح إنساناً ليستخرج الكنز الذي تحرسه العفاريت ، ولقد كدت أن أكون احد هؤلاء الفقهاء عندما اقترب مني شيخ من الدروز في مقهى بجبل لبنان وأنا ألبس الزي الوطني فظنني فقيهاً مغربياً فاسترسل يبثني شجونه وان زوجته الملعونة لا تحبه وتهجره وقد تركني بعد أن قرأ في عيني تأييداً لوجهة نظر زوجته فيه ..

وأعود للساقية الحمراء ووادي الذهب فهي مركز من مراكز العرب المعتزين بعروبتهم والمتعطشين لاخبار العرب وانتصاراتهم ، وبالرغم من سيطرة الاسبان عسكرياً على المنطقة ، انتفض الصحراويون في ثورة عارمة عندما دعتهم السلطات الاسبانية من أقاصي الصحراء للاشتراك في احتفال موهوم جلبت له السلطة الكثير من الصحفيين والمراسلين والأجانب لتبين للرأي العام ان الشعب الصحراوي يرغب في استمرار اسبانيا في حكمه ، وقد كان ذلك يوم الأربعاء ١٧ من يونيو سنة ١٩٧٠ م ولكن الصحراويين نصبوا خيامهم بعيداً عن مكان الاحتفال مؤثرين البقاء لوحدهم على الانضمام للاسبان المحتلين ، مما أفسد عليهم لعبتهم ، فحاولت الشرطة ارغام العرب على المساهمة في الحفل ونقل خيامهم إلى مكان الاحتفال ، ولكن الاخرين رفضوا وحدثت المصادمة في الساعة الخامسة مساء عندما أحضر الحاكم العام شيوخ القبائل الممثلين في المجلس، وأرغمهم على قرار يجيز اطلاق النار على المواطنين الثائرين . وحدثت مجزرة استشهد فيها العشرات وبقي الرصاص يلعلع في أجواء مدينة العيون حتى ساعة متأخرة من الليل ومنع

التجول لمدة ثلاثة أيام قبض فيها على زعماء الشعب وأودعوا السجن ومنهم من قتل في السجن وأعلنت أسبانيا فراره لإيهام الرأي العام أنها لم تقتله كالمحامي بصير محمد .. وبعد ذلك أصبح هذا اليوم بالنسبة لعرب الصحراء يوماً للثورة.. يتظاهرون فيه وتقابلهم السلطات بالرصاص والقمع حتى هذا العام .

العرب المجاورون

حدثني أحد الشباب الصحراوي النشط قائلاً :

كم كان بودنا أن يقف اخواننا العرب معنا لتحرير المنطقة من النفوذ الأجنبي، وبعدها لا يهمنا كثيراً شكل الحكم ما دام الهدف واضحاً والتحرير هو الغاية . ولكن هذا الرأي لم يكن واضحاً أو هكذا يتراءى بالنسبة للاخوة العرب ، جيران الصحراء فموريتانيا ترى أن الصحراء جزء لا يتجزأ منها ، والمغرب يرى أن الصحراء جزء من ترابه ، كما كان يطالب بموريتانيا أيضاً .. وربما كان اعتراف المغرب بموريتانيا على أساس أن تعترف الأخيرة بسيادته على الصحراء وقد وجدت أسبانيا في اختلافهما رحمة فصارت تحدث كل قسم على حدة بأنها عندما تخرج ستسلم الصحراء اليه .

وقد رحلت عن اقليمي (افني والطرفاية) الواقعين في التراب المغربي بعد أن حكمتهما قرابة ستين سنة ..

وإلى جانب رأي كل من موريتانيا والمغرب برز رأي آخر وسط ، ومفاده ان تقسم الصحراء إلى قسمين : وادي الذهب الغني بالفوسفات يكون من نصيب المغرب . والساقية الحمراء الغنية بالحديد والبترول تكون من حصة موريتانيا .. ويعطى للجزائر ممر ضيق إلى المحيط لتصدر معادنها بتندوف عن طريق ميناء بالمحيط ويقع هذا الممر بين القسمين .

وعقد مؤتمر نواذ يبو بين الرؤساء هواري بومدين والملك الحسن الثاني والرئيس

المختار ولد داده ولكن المؤتمر لم يحرز النجاح المتوقع ، ويقال أيضاً أن هنـــاك اشكالاً آخر في تحديد موقع الممر الجزائري ، فكل فريق يرى أن يكون الممر في حصة الثاني .

وقبل المؤتمر كان بعض الصحراويين ينادي بالانضمام إلى المغرب كما ينـادي فريق آخر بالانضمام إلى موريتانيا..ولكن بعد مؤتمر نواذيبو شعر الصحراويون بأنهم غنيمة تقسم فأصبح الرأي السائد هو الاستقلال التام لمنطقة الصحراء .

ولما حاورت أحد الصحراويين في أن منطقتهم صغيرة لا تحتمل أن تكون دولة لذاتها وانها جزء لا يتجزأ من الأراضي العربية سواء في موريتانيا أوالمغرب أو الجزائر أجابني قائلا :

«نحن لسنا أصغر مساحة من امارات الخليج ولا أقل سكاناً ولا ثروة»وهكذا يتسابق العرب في التجزئة وتجزئة التجزئة ..

وأخيراً : هذه هي الصحراء العربية .. حاولت أن ألقي الأضواء عليهـا لتنوير المواطن العربي وتبصيره بمشاكل وطنـــه .. غير أن ما يهمنا جميعاً وما ننادي به هو أن تعي أسبانيا علاقتها بالعرب وان ترحل عن المنطقـة تاركة السكان العرب يقررون مصيرهم دون أي تدخل أجنبي ..

وعندها سيجد الشعب الاسباني أصدقاءه العرب يدافعون معـــه عن حرية ترابه من الاستعمار البريطاني الجاثم على جبل طارق .

ان مواقف اسبانيا الصديقة لا يمكن أن ينساها العرب،ولكن تلك المواقف لن يكون بأي حال من الأحوال ثمنها الاستيلاء على التراب العربي .


ANICH
المكتبة الإلكترونية الصحراوية
SAHRAWI DIGITAL LIBRARY



ثورة الساقية الحمراء ووادي الذهب

فبراير ١٩٧٤

عندما انطلقت في صباح يوم غائم من أحد أطراف الصحراء الكبرى، لم أكن أتوقع أنني سأقطع ستة آلاف كيلومتر في الصحراء المقفرة قبل أن أستطيع جمع المعلومات اللازمة لانبثاق ثورة الشعب العربي في الساقية الحمراء ووادي الذهب فبعد أن جهزنا ما يلزمنا من الماء والزاد والبنزين، مرقت بنا السيارة الطاوية كالسهم يقودها زميل لي خبير بشؤونها كما خبرت أنا الآخر مسارب الصحراء ومسالكها، وانداحت بنا عبر معالم طريق كثيراً ما تحجبه الغيوم عن الرؤية ومع ذلك كنا نواصل السير دون كلل أو ملل، نقطع الطريق بالحديث في الأشياء المهمة ثم التي دونها حتى فرغنا من ذكر المهم والتافه فصمتنا وعيوننا مسمرة على الطريق وأفكارنا تسبح بعيداً جداً عن اللحظة التي نعيشها.

كان فكري يسبر غور التاريخ إلى عام ١٨٨٣ عندما تأسست شركة تجارية لصيد الأسماك من الأسبان، وتبعها بعد ذلك إنشاء بعض المرافىء البسيطة للبيع والشراء واصطياد الأسماك.. ولم يشعر الأهالي بخطورة هذه المرافىء لدرجة أن رؤساء القبائل بوادي الذهب اتفقوا مع (اميلوبونيلي) الاسباني على توقيع معاهدة الغرض منها توسيع استغلال المنطقة لشركة (أفريقيا الاسبانية) من منطقة (أبو الجدور) إلى (القويرة) ولعبت هذه الشركة دوراً كبيراً في إرساء قواعد الاستعمار الاسباني في المنطقة كما فعلت الشركات البريطانية بالهند..

وفي عام ١٩٣٤ توجت أسبانيا أعمال شركتها هذه بوضع المنطقة تحت الحماية الاسبانية وقامت قوات اسبانية باحتلال المناطق الداخلية ومنها مدينة

« الصمارة » وهنا تنادى الأهالي لصد العدوان ولكن بعد فوات الأوان .

وفي عام ١٩٥٨ م أصدرت رئاسة الجمهورية الاسبانية قراراً يقضي باعتبار الصحراء جزءاً من الأراضي الاسبانية تدار بحكم عسكري ..

استضافة في الرمال

كنت سارحاً بأفكاري أتابع التاريخ ، وربما كان زميلي هو الآخر يفكر في زوجته التي تركها صباح ذلك اليوم ، أو ربما كان يفكر في غيرها ، حتى توقفت السيارة على غير انتظار « تحرن » دون أن تتقدم أو تتأخر رافضة محاولات زميلي في دفعها للامام ولو خطوة واحدة أو سيرها للخلف ولو شبراً واحداً .

قفزنا إلى الأرض فإذا بها تتمدد على الرمال وبطنها تتربع فوق كثيب هائل، أما عجلاتها الأربع فقد غاصت قرابة النصف ، لعلها المسكينة أرادت أن تستريح من عناء السفر قليلاً ..

انبطحنا الاثنين في وضع مضحك نحفر بأيدينا كالجرذان ما أعاقها عن التقدم ولم ننتبه إلى حفنات الرمال التي كانت تصيب وجوهنا ورؤوسنا حتى إذا ما قمنا ظهرت لكل منا عيون صاحبه وكأنها حفر في التراب، أما عن الوجوه فحدث ولا حرج ، كمن اشترك في لعبة البحث عن قطعة حديدية في صحن من الدقيق بفمه .

تقدمت السيارة بعد لأي واعتليناها بعد أن حمدنا الله واندفعت تسابق الغيم وزميلي يروي لي حدثاً مماثلاً مر به أثناء أحد التحقيقات « برملة زلاف » بجنوب الوطن ..

وقد يرقص المسافر..

مالت الشمس للغروب ، وللغروب في الصحراء رهبة ووحشة عندما تحمر جوانب الهضاب ويغمق لون ظلال جنباتها الأخرى وتصبح الطريق أمامك عبارة عن خطوط بيضاء كطرق القوافل القديمة ، ساعتها – وساعتها فقط – وجب عليك أن تتجنب السفر ليلا وإلا ابتلعتك متاهة القفار ، وأصبحت للسافيات مقاماً يسترك الجنوب ويكشفك الشمال وعظامك تزداد بياضا مع الزمن في تلة قد تكون أول واطىء لها وآخره .

ملنا إلى قرية طيبون أهلها لم نشعر بينهم بغربة ، – والكرم في الصحراء شيء لا يصدق – وعلى رائحة شواء شاة ذبيحة جلست إحدى فتيات البيت تعد لنا شاياً أخضر تعبق منه رائحة النعناع ، وحول الشاي تجمهر الشباب والشابات ، وعلى إيقاع الطبل قام الجميع يرقصون بالتوالي وانطلقت حناجر الكواعب الأتراب في الغناء ، وكاد زميلي أن يبزهم رقصاً لولا أن كبر بطنه أعاقه قليلاً عن الرقص الجيد .. ومع ذلك فلقد كان النجم الراقص في الحفل بلا منازع ، حيث كان رقصه نكتة ..

وفي الصباح كنا نندفع في منعرجات جبلية إلى أرض فضاء سرعان ما ابتلعنا السراب والصحراء لنصير جزءاً منها في فجاج مغبرة الجوانب ..

المكتوب

بعد منتصف النهار بقليل جعلنا من سيارتنا ستراً بيننا وبين شمس الظهيرة في الصحراء المرمضة وجلسنا نحتسي كوباً من الشاي ونتناول غداءنا البسيط المكون من الخبز وبعض الفواكه .. ونحن كذلك إذ براكب جمل ألقت به

مهامه الصحراء يجانبنا أناخ جمله وسلم ..

● ياكم الخير ..

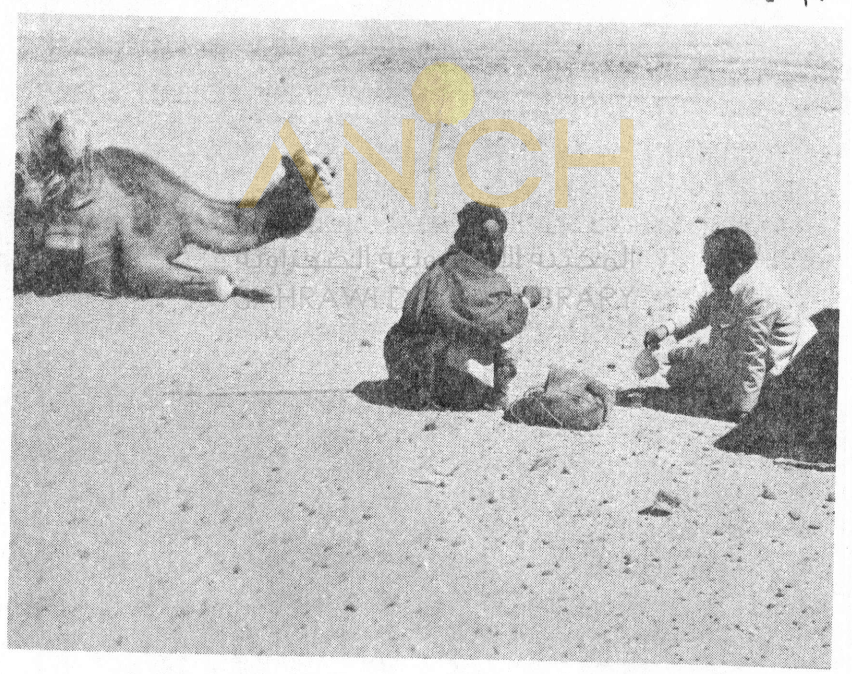
– واش طاري ..؟

● واش عاقب لكم .. ؟ (أي من أين انتما قادمان) .

● واش قايسين (إلى أين أنتما ذاهبان) ؟ .

– ياك ما عاقب حد باش يموت (أي ألم تتركوا أحداً يموت) ؟.

وطمأناه على أننا لم نترك أحداً في القرية (موجوعاً ولا غايسه شيء) ولم نترك أحداً أيضاً يريد أن يموت ونحن والله يعلم أننا لا نعلم في أمر من يسألنـــا عنهم شيئاً .



وجلس صديقنا الجديد يشاركنا طعامنـــا وجمله ينظر إلينا والأسى باد على عينيه وعظامه بارزة من الهزال ، وكان صاحبنا يثني على المكتوب الذي قاده

لأن يتغذى هذا الغذاء الذي كتب له منذ أن اشتريناه من البلد البعيد ، وكدت أن أفعل معه كما فعل ذلك الرجل الذي اصطاد غزالاً فصار صاحبه يحك أنفه وهو يقول كلما حككت أنفي أكلت اللحم ، فأطلق صاحبه الغزال وهو يقول له دع أنفك يمسك بالغزال .



ولما ناولنا لضيفنا تفاحة استغشمها ولم يتناولها إلا بعد أن شاهدنا نأكلها وهو يقول « واش هذا الحدج » ؟؟ أي ما هذا الشيء المكور ..؟ وقد كان الرجل من أطراف الصحراء تركه الاسبان يجهل كل شيء حتى الفواكه .

وما ان انتهى الغذاء حتى ودعنا صديقنا الصحراوي وهو يحث جمله الهزيل وسرنا لا نلوي على شيء ، حتى قبلت الشمس جانب الصحراء الغربي ، حينذاك عرجنا على دارٍ لقوم في قرية صغيرة قيل لنا أن لأهلها علماً بالثوار واتصالاً ، فولجناها وكأنما كنا غائبين عدنا إلى أهلنا بعد سفر طويل.. أنسانا ترحاب أهلها عناء الطريق وعناء السفر ..

عودٌ على بدء

همسنا لصاحب الدار عن بغيتنا طالبين منه مقابلة مَن مِن الثوار يتواجد بتلك القرية ، فانسل من بيننا وابتلعه الظلام ، وبعد قليل أقبل في ثلاثة أشباح منهم اثنان من الثوار .. سلّما وجلسا بتحفظ، وقد كانت الدار غاصة بالمسلّمين والمتطلعين لأخبارنا ، وقد جعلنا وجود السيارة معنا كالسارق الذي يحمل شمعة بيده .

انتحيت بالزائرَين ناحية بدار أخرى أقل ازدحاماً وأكثر إنارة وتطلعت في وجهيهما فإذا بأحدهما ذو عينين غائرتين وجبين مقطب رسم عليه الزمن ثلاثة خطوط متوازية ، ينظر إليك وكأنه يريد أن يسبر غورك ويتطلع إلى أعماق أعماقك ، وكان يضع لثاماً على فمه ومقدمة أنفه ..

أما الثاني فكان رجلاً دون الأربعين بقليل ، بشوشاً يبتسم فتفتر شفتاه عن أسنان لامعة بيضاء ، ولحيته أنيقة سالت مع عارضيه تلاعب فيها بالموسى وفصلها عن شاربه .. الأمر الذي جعل من توزيع شعره في وجهه توزيعاً عادلاً حفزه بحاجبين كثيفين ، وكان هو الوحيد المتحدث ، أما صاحبه فكان يصغي إصغاء لا ينبس ببنت شفة إلا إذا استدعى الأمر تصحيح شيء ، ولما سألتهما عن المسئولين في الثورة اللذين قيل لي أنهما هنا أجابا بأن الأخوين ذهبا إليكما في القرية التي انطلقتما منها أول أمس ..

يا للضياع !! سأقطع ألف كيلومتر آخر في طريق العودة وربما لا أجدهما لأن المسافات في هذه الصحراء لا قيمة لها ..

سمر .. وشجون

قررنا العودة في الصباح إلى نقطة الانطلاق الأولى، ومع ذلك سهرنا حتى

الرابعة صباحاً نستمع إلى شجون إخواننا في الصحراء .

كانت بداية الثورة مظاهرة نظمها الشعب العربي في الصحراء يوم الاربعاء ١٧ من يونيه ١٩٧٠ حيث جمع الاسبان رجال الصحراء من مختلف بقاعها لاحتفال موهوم بمدينة العيون، الغرض منه اطلاع الصحافة العالمية على مدى حب العرب للأسبان ! وتحبيذهم للاستعمار الاسباني ! ولكن العرب رفضوا ذلك وتحركوا من تجمعهم بخيامهم التي اختاروا لتشييدها ربوة منعزلةوقابلهم الاسبان بالرصاص بعد أن رفضوا الانصياع إلى أوامر الشرطة فسقط منهم مجموعة كبيرة من القتلى قال الاسبان انهم اثنا عشر ، وقال العرب انهم فوق الأربعين .. وقبض على عشرات المواطنين وأودعوا السجن من بينهم المحامي الشاب : « بصير محمد ولد سيدي إبراهيم » الذي كان يرأس التنظيم السري المناهض للأسبان ، وبالقبض عليه أوقفت جريدته السرية المسماة : « الشهاب » وكان يصدرها بالمغرب ، ومنذ أن قبض عليه لم يعرف مصيره حتى الآن وتؤكد الدلائل أنه قتل في المعتقل تعذيباً.. وبعدها حاول المغرب أن يستفيد من نقمة الجماهير هذه لحسابه ، فأسس « منظمة الرجال الزرق » كجبهة معارضة للأسبان حوّلها من بعد إلى « حركة ٢١ أغسطس » ثم إلى « الجبهة الثورية لتحرير الساقية الحمراء ووادي الذهب وسبتة ومليلة » وجعل على رأسها شخصاً مغربياً على صلة بالمخابرات المغربية سمى نفسه كاسم حركي « ادوار موحا » اتصل بالجزائر ومكث بها مدة ولما افتضح أمره هرب إلى بلجيكا بعد أن سرق آلتين للكتابة من رئيس حركة تحرير جزر الكناري ، وربما يكون الآن قد عاد للمغرب ليخرج في دور جديد ..

في هذه الأثناء حاولت مجموعة من الرجال ربط الجماهير داخل الصحراء بحركة داخلية بعيدة عن أي تأثير خارجي تدفعه المصالح الخارجية فكان أن تكونت « الجبهة الشعبية لتحرير الساقية الحمراء ووادي الذهب » ..

واستمدت قوتها من الجماهير العربية باعتبارها رافداً من روافد الثورة العربية

وأعلنت عن انبثاقها يوم ١٠ من مايو ١٩٧٢م .. بتنظيم ترأسه اللجنة التنفيذية وتتكون من سبعة أعضاء يليها المكتب السياسي ويتكون من واحد وعشرين عضواً ، ثم المؤتمر العام الذي يمثل جيش التحرير . وفجّرت هذه الحركة أول عملياتها يوم ٢٠ من مايو ١٩٧٣ م... في موقعة « الخنقة » قرب الحدود المغربية ،



واستولوا على مجموعة من الأسلحة . وقد اعتبرت هذه الجبهة أن الكفاح المسلح هو الحل الوحيد والضامن لحرية الشعب في الصحراء ، ولإفهام المستعمر بالحديث الذي يفهمه رافعة شعارها القائل : « بالبندقية تنال الحرية » .

كان صاحبي يحدثني بحماس بالغ وبإيمان صادق عميق . وفي هجعة الليل انسل السامرون كل إلى وجهته ، وبقينا وحدنا في مضاجعنا نحاول النوم وأفكاري كلها تتابع شريط الأخبار التي سمعتها قبل قليل ، وعقلي منشغل بطريق الغد التي سنعود معها من جديد ..

الحديث المعاد

يقولون للشيء الممل « أمل من حديث معاد » وكانت طريقنا في الصباح حديثاً معاداً ، لم يكن فيها من الجدة غير مرافقة زميلنا الثائر لنا صاحب العيون الغائرة والذي اتفقنا على تسميته « مهيد » .

وبعد مسيرة يوم وبعض يوم – وقد أثبت مهيد فيها نشاطاً يفوق الوصف – ملنا إلى خيمة بدوية وجدنا فيها الكرم الحاتمي والأنس والأهل ، مزحنا مع أهل الدار وكأننا نعرفهم منذ أيام الصبا .. ورددنا معهم الشعر الحساني . ولوحنا بكيسان « الشاهي » الفارغة كما يفعل أهل تلك الديار ، وشربنا الحليب بالسكر « الزريق » كما يشربون ، وأصر زميلي أن يكتشف حظه فطلب من ربة الخيمة أن تضرب له خط الرمل ، وفعلت دون تلكؤ بعد أن تمتمت بأشياء غير مسموعة ووضعت خطوطاً في التراب نظرت إلى زميلي قائلة : إنك ستلتقي بمن تحب ، وقدامك طريق .. و .. و ..

فقمنا للطريق بعد دعوات أهل الخيمة لنا بالسلامة والعودة. نفس الرمال .. نفس المطبات والمنعرجات .. حتى الأحجار التي كانت في الطريق لا تزال في مواضعها وبنفس الطريقة .. ولما :

غاب قمير كنت أرجو غيابه ورروح رعيان ونوم سمر

على رأي الشاعر العربي .

دخلنا القرية التي تركناها منذ أربعة أيام مضت ونزل من بيننا رفيقنا «مهيد» ليبحث عن زملائه من الثوار على أن يكون اللقاء بعد ساعتين على قارعة الطريق .

اجتماع في سيارة

أقبل « مهيد » في الموعد المحدد يرافقه الإخوة الذين طال البحث عنهم ، كما

طال بحثهم عنا ، قرابة الساعة الحادية عشرة ليلا ... ولما كنت لا أملك داراً وهم أيضاً لا يملكونها قررنا أن نعقد اجتماعاً داخل السيارة بعد أن نخرج خارج القرية ونطفىء الكشافات الضوئية ..

خيم الظلام علينا وعلى سيارتنا بعد إطفائنا أنوارها ، وأصبحنا جزءاً مظلماً ككتلة من الأحجار أو شجرة سدر ..

وانطلق أحد الجماعة يتحدث بحماس بالغ يوضح إيمانـــه بعروبته وإسلامه وأهداف الثورة التي تفجرت بالمنطقة وموقف العرب قاصيهم ودانيهم ، وكأن الجميع على رؤوسهم الطير ، فالمتحدث هو أحد الكبار المسئولين في الجبهـــة الشعبية لتحرير الساقية الحمراء ووادي الذهب ..

كان الظلام يمنعني من رؤية ملامح الجماعة فرؤوسهم ووجوههم يحجبها الظلام والعمائم ، ولم أستطع أن أتبين وجه محدثي ولكنني كنت أرى حركات يديه عندما يبسطها إذا لان الحديث ويقبضها عندما يتحدث عن القوة ..



كانت موقعة « الخنقة » أولى العمليات ، تفجرت يوم ٢٠ من مايو ١٩٧٣م...

واستطاع الثوار فيها أن يستولوا على جميع أسلحة الدورية الاسبانية ، ولقد كانت خطة الثوار التسليح من الاسبان وتجنب إراقة الدماء بين العرب بقدر الإمكان ، لأن الاسبان يقدمون الجنود الصحراويين للايقاع بين القبائل .

وكان العدو يلقي في روع المواطنين أن الثورة يقوم بها مجموعة من سراق قبيلة الرقيبات ، ولكن الاسبان لم يستطيعوا أن يثبتوا هذا عندما وجدوا أن الثورة يشترك فيها جميع القبائل .. وحتى أن الثوار ذات مرة وجدوا في جيب قتيل أسباني « ٤٠٠٠ » أربعة آلاف بسيطة وضعوها تحت رأسه ووضعوا فوقها حجراً ليثبتوا للاسبان أن الهدف من الثورة هو التحرير وليس كسب المال أو السرقة كما يدعون ..

وبعد موقعة « الخنقة » قام الثوار بأكثر من عشرين عملية خسر فيها العدو عشرات القتلى واستطاع الثوار أن يستولوا على عشرات القطع من الأسلحة الخفيفة وأحرقوا عدة مراكز للعدو ، واستطاعوا ذات مرة في مركز « بير الحلو » أن يستولوا على المركز ، ويكتبوا على جدرانه شعارات الثورة وينسحبوا بعد مدة دون أن يصاب أحدهم بأذى ..

زحف الجند فقتلوا حماراً !!

ما أشبه الليلة بالبارحة ، الطائرت البريطانية في عمان تفقد إحداها نظير بقرة من أبقار الثوار بظفار ..

أما الاسبان فإنهم يفقدون مجموعة من الجند نظير حمار للثوار .

فلقد كانت مجموعة من الثوار يحملون شرابهم وطعامهم على ظهر حمار يرافقهم في مسيرهم الشاق ، رابطاً مصيره بمصيرهم ، وقرب جبال « الرغيوة » القريبة من الحدود الموريتانية علم بهم الاسبان فزحف الجند من كل جانب ورصدوا حركاتهم بالطائرات العمودية المصفحة وطوقوهم ، وانهال الرصاص عليهم من كل الجهات ،

واشتركت الطائرات في قصف المنطقة واستطاع الثوار أن يفكوا الحصار وينسحبوا دون خسائر ، ولكن الحمار كان قصير العمر وكان هدفاً سهلاً لإحدى الطائرات المغيرة فقتل بعد أن سقط من الاسبانيين عدة جنود . وهكذا عرف الاسبان أن للحمير ثأراً وأنه غالي الثمن ..

وفي الظلام الدامس شعرت بابتسامة محدثي مستهزئاً ومزدرياً بالعدو عندما وصل إلى هذه النقطة ..

أين الشاهي ؟

إن الحديث بدون الشاهي ناقص التركيز ، خاصة عند البدو في الصحراء ، ولكن أنّى لنا بمحل آمن نحتسي فيه كوباً من الشاي ، في هذا الهزيع الأخير من الليل .. بل أنّى تكون لنا دار لم يكن للرقيب عين فيها ؟ وأثناء الحديث اقترح أحد الإخوة أن نعود إلى القرية لنجلس في دار يعرفها هو ويعرف فيها (تيايا) أي من يجيد إعداد الشاهي ..

وافقنا بالاجماع على اقتراحه وأدرت محرك السيارة عائداً للقرية وما ان امتدت أضواؤها تكتشف الأفق القريب حتى انفلت من أمامنا ذئب يتجسس على القرية عله يجد غرة من القوم فيختطف حيواناً ضعيفاً أو يقتنص طير دجاج، مقلداً في ذلك الاستعمار في انقضاضه على الأضعف واحترامه للأقوى .. وبعد ازعاجنا لذلك الذئب المتجسس .. شاهدنا ذئاباً أخرى ولكننا لم نستطع ازعاجها فتواجدها في تلك الساعة المتأخرة من الليل أزعجنا نحن في هدأة ذلك الليل الأليل ..

تعارف جديد

وفي الدار تابعنا الحديث بعد أن أضحى واضحاً لي وجوه المتحدثين وقد ذهبت تخيلاتي السالفة أدراج الرياح كأي تصور بعيد ، فالرجل المتحدث شاب

في الثلاثين ولم يكن كهلاً كما كنت أتصور ، وهو هادىء النظرات تلقى تعليمه بإحدى الجامعات بالمغرب ، كان يحدثنا بهدوء تام كأنه مدرس تاريخ يشرح للناشئة أمجاد أجدادهم الغابرة ، وكان بين الحين والآخر يبتسم عن صف من الأسنان ، تركت ثنيته العليا محلها منذ زمن مما جعل رصد حركة لسانه بفيه شيئاً ميسوراً ..

وكانت عمائم الجماعة السوداء تختلط بسواد لحيتهم الكثة فتزيدها هيبة ...
وتذكرت حينها البيت الذي تمثل به الحجاج :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا   متى أضع العمامة تعرفوني

ولقد عرف العدو هؤلاء قبل أن يضعوا عمائهم ......

(دراعتي) البورجوازية..

ولقد لفت نظري لون دراعاتهم التي تشبه التراب بعكس دراعتي الناصعة البياض والتي اشتريتها من سوق الدراعات بثمن مرتفع وكنت أفاخر بها وأنظر لجنباتها بين الحين والحين، وأدخل يدي في جيبها الواسع الذي يتدلى على صدري وقد زين بنقوش يدوية ، وأتحسس قلمي ومفكرتي التي لم أخط فيها شيئاً مخافة الضياع ومخافة عبث العابثين ..

ولما قلت لهم انني ألبس دراعة مثل دراعاتكم وأريد أن أدخل معكم المنطقة ضحك أصحابي حتى ظهرت عيوب أسنانهم الخفية ، وقال لي محدثي السابق : إن دراعتك تصلح لأن تكون هدفاً للرماية ليلاً لشدة بياضها كما أنها لباس البورجوازيين في هذه الجهات لغلاء ثمنها ، وخجلت من نفسي فلقد استغشمني البائع وجعلني من طبقة جشعة غير طبقة الثوار ..

إن ملابس الثوار بسيطة ومموهة لتساعدهم على التنقل والتخفي ..

الرحلة الشاقة

استرحنا بالقرية يومين نعد فيهما لوازم السفر ،وفي صباح اليوم الثالث انطلقنا نحو الشمال بعد أن تواعدنا مع الثوار على اللقاء بهم على مسافة ألف كيلومتر لنقطع بعدها معاً ثلاثة آلاف أخرى تتخللها رحلات بحث عن الثوار في جبالهم ووديانهم ، وهم وحدات متنقلة ، إذا ما سمعت عنها اليوم في محل لا تبيت إلا في غيره ، ورصدها من الأمور الشاقة المتعبة ، كمن يحاول إصابة ثعلب اثناء روغانه ..

لم يكن ذلك الطريق غير طريقنا الأول وقد صرنا فيه أخبر من القطاة حيث تمكنا من بلوغ قريتنا المنشودة بعد يومين من السير الشاق، رقصت فيها سيارتنا آلاف الرقصات وغاصت في الرمال عدة مرات لم يسعفنا في احداها إلا مجموعة من السياح والسائحات جاءوا للتمتع بشمس الصحراء الدافئة في هذا الربيع المجدب الذي يتخذ الأجانب من بؤس ارضه واهله منظراً للسياحة .. كنا نشاهد على طول الطريق الهياكل العظمية المتناثرة لحيوانات نفقت من الجفاف ، تذرو السافيات جماجمها ، وسلاسلها توحي لرائيها رهبة الفناء ووحشته ، ومع ذلك شاهدنا الغربان تطير في سماء الصحراء وكذلك بعض طيور الحبارى .. ماذا تأكل ؟.. لست أدري ..

رجلان وكلمة سر

قضينا ليلة بتلك القرية النائية ،لم تكن أحلامي ليلتها سارة في تلك السويعات التي حسبت من نومي ، وفي الصباح الباكر خرجنا منها للقاء الرجلين اللذين كلفا من قبل الثورة لمصاحبتنا إلى مضارب الثوار . ولكننا لا نعرف الرجلين فكيف نفرق بينهما وبين من يريد أن نحمله في الطريق كعابر سبيل أو عابر

أحابيل .. (وأخيراً) اتفقنا معهم على أن يتعمم أحد الرجلين بعمامة صفراء والآخر بعمامة سوداء ، وأن تكون كلمة السر : « ان ينصركم الله فلا غالب لكم » .

وما ان خرجنا من القرية وابتلعتنا الصحراء الشاسعة الموحشة – والطريق فيها كمسارب النمل خطوطاً في الأرض تتوازى وتتقاطع – حتى لاح لنا الرجلان بعمامتيهما المختلفتي الألوان ووقفنا بجانبها فاقترب صاحب العمامة الصفراء هامساً لي بكلمة السر ففتحنا لهما أبواب السيارة وركب المتعمم بالصفار بجانبي وكنت أتجاذب معه الحديث .. كلما شعرت برغبة في الحديث .. وكثيراً ما يفضل الانسان الصمت في هذا البحر الصامت من الصحراء الساكنة ..

عرفت أنه أحد الشباب المثقف بالمنطقة ، واصل دراسته خارج الصحراء في احدى الجامعات بالخارج على حسابه الخاص ، ونظراً لنشاطه السياسي قضى عدة سنوات في سجون اسبانيا بالصحراء .. يجيد عدة لغات منها الاسبانية والفرنسية إلى جانب العربية ..

ولما أنس بالجلسة كشف عن لثامه فظهرت لحيته الحمراء التي جعلته مع عينيه الخضراوين وبشرته البيضاء الضاربة للسمرة كأحد المستشرقين الذين اتقنوا عادات الصحراء وطباعها .

الانتقام الاسباني

كان صاحبي يحدثني عن انتقام الاسبان من الأهالي بعيد كل عملية ناجحة يقوم بها الثوار ، فهم يمرون بطائراتهم العمودية على ارتفاع منخفض فوق الخيام فيطيرونها في الهواء ، وكذلك كانت تفعل بملابس النساء والأطفال مما يبعث الرعب والفزع في نفوسهم ، ويدخلون بعدها جندهم للخيام فيبددون المواد الغذائية بحجة البحث عن الثوار والأسلحة ، ولكنهم في الواقع يريدون تجويع السكان حتى لا يفكروا في الثورة أو مساندة الثوار ..

ولقد قبضوا ذات يوم على عامل من عمال فوسفات بوكراع واشبعوه ضرباً ولكماً ثم ألقوه من طائرة عمودية أمام العمال لارهابهم ، وحجة الاسبان أن الجبة التي يلبسها هذا العامل تشبه جبة الثوار .. إذن هو واحد منهم .

كما قبضوا على خادمة سوداء ترعى الغنم فربطوها بحبل من عنقها إلى غصن طلحة مرتفع كما تربط الشاة بعد أن ربطوا يديها للخلف لانها لم تعلمهم عن مواقع الثوار..وبقيت على هذا الحال يومين كاملين إلى أن عرف أهلها مربطها وأطلقوها وهي في الرمق الاخير ..

وهنا انطلق زميلنا السائق بصوته الاجش يردد أغنية موريتانية نسي لحنها الأول وألف لها لحناً جديداً خاصاً به هو أبعد ما يكون عنها ..

« قوات أريامو كامـــلات

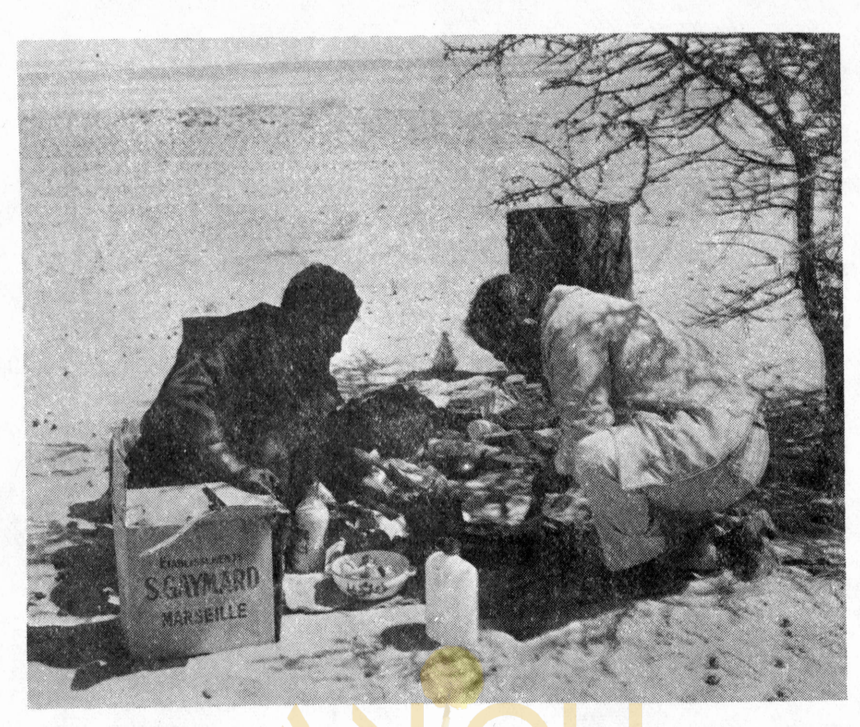
في الضيق منين يفـــاتن »

فلقد منعه ضجيج محرك السيارة من تتبع الحديث معنا ومـــل الصمت فضحكنا للاغنية غير المنتظرة وفي غير محلها ومع ذلك فهي غير متقنة ..

طلحة = قصر

مالت الشمس للزوال .. وليس في هذه الصحراء الجرداء شبر واحـد يمكن أن يستظل فيه الانسان ؛ وعلى البعد شاهدنا طلحة يابسة فاستبشرنا بها وكأنها قصر منيف .. وضعنا تحتها أمتعتنا وتفرقنا نجمع الحطب الذي أصر هو الاخر على عدم الاقتراب من طلحتنا أو من قصرنا الذي عثرنا عليه ..

جلسنا نلوك خبزاً يابساً مع بعض الشواء ، وعلى امتـداد البصر تلوح قطع جبلية سوداء غارقة في زرقة السراب ، ومع أنها جبال عربية في أرض عربية وسكانها عرب إلا أن الوصول اليها من الممنوعات علينا لأن الاسبان يريدون ذلك ..



ان الانسان في هذه الصحراء لا يساوي شيئاً ، فهو كعصفور تائه في فضاء ملبد بالغيوم ، فقبل وصولنا إلى هذه الطلحة شاهدنا خيمة هدمتها الرياح ، وأتى السافي على جنباتها وبداخلها رجل مريض استوقفنا صاحبه وطلب منا أي شيء يمكن أن يسعفه . ورغم اننا ناولناه بعض الأقراص المسكنة لوجع الرأس .. فقد يكون الان قد مات كما تموت الشياه الهزيلة في هذا الجفاف القاتل وهـذه الصحراء الكالحة .. وربما إذا مر غيرنا من بعدنا يجد جمجمته ملقاة بين جماجم حيواناته النافقة وقد لا يتوقع انها جمجمة انسان تعيس تلاقى عليـه الاستعمار والجفاف ، وهما مصيبتان إذا التقتا على أرض هلك أهلها ، ان وراء تلك الجبال السوداء يقطن أهل هذين الثائرين ، ولكنهما لا يستطيعان الوصول اليهما ، ففي فترة الصمت أثناء تناول الطعام رأيت عيونهما باتجاه الصحراء شاردة ، وربما كان قلباهما في خيام الأهل يداعبان الأطفـال العراة ، يا لقسوة الاستعمار ..

فاحترمت صمتهما ولم أقاطع تفكيرهما طوال اللحظات تلك ....

شهداء الثورة

واصلنا السير بعد أن تركنا فتات خبزنا يلتهمه النمل الجائع.. قفزت السيارة عدة مرات فوق الحفر والمطبات وقبّل سقف السيارة رؤوسنا بشيء من عدم الاحترام، وعندما استقامت السيارة في طريقها واستقام خلفها موكب الغبار سألت صاحب اللحية الحمراء: كم شهيداً سقط للثورة منذ أن تفجرت أولى عملياتها ؟؟

فأجابني: لم يسقط لنا ولا شهيد واحد باستثناء الأخ «بصير محمد» الذي سبق وأن علمت أنه قبض عليه ولم يعرف مصيره...

ولكن الاسبان قبضوا لنا على الأخ «يحظي» جريحاً بعد أن أسقط وحده أكثر من عشرين قتيلاً من جنود العدو وذلك في معركة «قلب الحمار» والقلب هو الجبل المنقطع في الصحراء.

فقد كان «يحظي» هدافاً بارعاً ولما لم يستطع الجند الاسبان اصطياده بالبنادق ركبوا مدفعاً ونسفوا موقعه فجرح وقبض عليه ومعه أربعة من رفاقه وقد نفدت ذخيرتهم وقد حاول الاسبان قتله ولكن الجنود الصحراويين حموه وأوصلوه للمستشفى حيث تكونت مظاهرة بالعيون احتجاجاً على اصابة «يحظي» وبالرغم من أن اصابته غير قاتلة فقد تضاربت الاراء حول مصيره فمن قائل أنه قتل بالمستشفى ومن قائل انه لم يمت بعد. والخبر اليقين عند الاسبان..

ورجعنا للصمت والسيارة تركض في الطريق الممل، كل منا كان يفكر في شيء ربما يخالف تفكير صاحبه .. ان دوريات الاسبان كثيراً ما تتوغل داخل الأراضي العربية المجاورة، وقد تختطف شخصاً أو أشخاصاً وتهددهم بالضرب ليخبروها عن مواقع الثوار .. وقد تكون إحدى هذه الدوريات تقبع الان أمامنا تسد الطريق الذي نسلكه وان حدث ذلك حتماً فسنقاد كما تقاد النعاج دون

أية مقاومة .. فالثوار خارج حدود المنطقة لا يحملون أسلحة سوى المسدسات الخفيفة .. بعكس ثوار ظفار الذين يتحركون من أرض محررة لها امتداد إلى أرض مستقلة ..



لاحت لنا قرية لبيوتها بياض تعكسه أشعة شمس المساء الغاربة ، للاسبان بها عيون خشيناهم على كشف ثوارنا فقررنا إلقاءهم دون القرية على أن نلتقي في فجر الغد وراء القرية من الجهة الأخرى ، وأن يقطعوا هذه المسافة على الأقدام ليلا .. فالليل خير ساتر في الصحراء ...

خيمة شيوعية

ملأنا خزان السيارة بالبنزين ، وكذلك احتياطيها من الأوعية ، وتجاوزنا القرية بعدة كيلومترات وراء مجموعة من الجبال .. ملنا إلى سفح احداها وأوقفنا السيارة وأخرج زميلي خيمة له كان يفاخر بها كلما ذكرت الخيام والصحراء ..

جعلت من نفسي لتلك الخيمة الصغيرة مرشداً في طريقة بنائها لأنهـا تشبه خيام الكشاف تلك الحركة التي أفخر بالانتساب إليها .. فلقد علمتني الكثير ..

ان خيمة زميلي من صنع الصين حمراء اللون ، براقة المنظر ، فراشها ملتصق بجنباتها بها نافذة خلفية أصر زميلي على فتحها رغم الهواء البـــارد الذي كانت ترمينا الصحراء به مساء ذلك اليوم .. وفي أقل من خمس دقائق كانت تخفق لريح الغرب البـــاردة وتنعكس على ظهرها حمرة الشفق فتزيدها على حمرتها احمراراً .. وما أن أظلم الليل حتى كانت نارنا تضيء وجهين ومقدم خيمة وعلى ركن منها يغلي براد الشاي وعلى الركن الآخر يشوي رفيقي قطعـة من اللحم « بقية شاة ذبحت لنا في آخر قرية بتنا بهـا أصر أهلها على تزويدنا بها » وكلما عسعس الليل صارت نارنا تخبو رويداً رويداً كما تخبو الثورات عند من لا يداوم على إذكائها .

النوم في شكارة

اقترحت على رفيقي أن ينام أحدنا بالسيارة والآخر بالخيمة ، حتى إذا مـا عدا علينا عاد ونحن في أرض نجهلها لا يستطيع مباغتتنا الاثنين معاً ، خاصة وان الخيمة إذا ربط فوها تصبح كالكيس ونحن بداخله ..

ولكن زميلي أصر على اقتراحه بالنوم في الخيمة .. فهي دافئة الجوانب .. واسعة الأرجاء مستطيلة البناء .. والاعرابية قالت :

لبيت تخفق الأرواح فيـه
أحب إلي من قصر منيف

ولا زال بي حتى زينها في عيني وحقر النوم داخـــل السيارة ، فنزلت على رأيه وافترشنا فراشها ونمنا أو بالأصح تمددنا بداخلها فإذا بها عافاك الله .. انها صنعت كالمرآة المقعرة خصيصاً لتجميع البرد وصبه في عظام العبد لله المقفرة ..

والبرد في الصحراء يخاطب العظام رأساً .. ولقد بت أتقلب وأنكمش وأتمــدد ورأسي قرب فتحتها المسماة « باب » أخرجه بين الحين والآخر أتطلع للفجر عله ينقذني من هذا البرميل من الماء البارد الذي تمددت فيه ..

وقد علق زميلي على إخراج رأسي بين كل لحظة وأخرى لمتابعة النجوم :

« إنني أشبه براكب الحافلة الذي يتطلع للمحطة التي يريد النزول فيها »....

وعند الفجر كان أول عمل عملته أن طويت تلك الخيمة الملعونة وأنا أسب سنسفيل صانعها ومشتريها وحتى النائم فيها ..

وما أن حزمنا أمتعتنا في ذلك الفجر البارد حتى انطلقنا إلى المكان الذي تواعدنا مع الثائرين فيه .. ولكن لم نجدهما .. فلربما أصيبا بمكروه وحتى لا نضيع الوقت اتكلنا على الله على مواصلة السفر بدونهما في رحلة الألف كيلو متر الأخرى ونحن نجهــل الطريق والمعاطن والاحساء ، وحتى مواقــع القوم الذين نرغب في الاتصال بهم ..

عجوز تنقذنا من الموت

كان الطريق يظهر أمامنا حيناً ويختفي أحياناً ترسمــه آثار السيارات ، بعضها مر من هنا منذ عام تتبعه عدة كيلو مترات فيصل بك إلى العــدم إذ ينتهي بواد أو جبل فتضطر للدوران والبحث من جديد عن أثر آخر ..

استمررنا على هذا الحال حتى العاشرة صباحاً عندما وجدنا أنفسنا تحيط بنا سلسلة من الجبال دفعنا إليهــا مهمه منبسط ككف البخيل .. وقد انتهت بنــا تلك الخطوط المتوازية القديمــة إلى ديار قوم سكنوا هنا منذ عــــام أو أكثر وارتحلوا لم يبق من خيامهم إلا رسوم الدار

تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليـــد

على رأي الشاعر البدوي .

ومدافن ومبارك إبل ، ولكن أين الطريق الحقيقي ؟ أين موارد الماء ؟ هل من خيام تظهر لنا ؟ لا شيء ..

درنا حول تلك الديار كثيراً ، وكلما اتجهنا إلى جهة صادفتنا منطقة وعرة صعب التحرك فيها أو التقدم منها .. ليس هناك ما يبشر بأن طريقاً مرت هنا حتى منذ أعوام ، ان عظام الحيوانات النافقة في الصحراء لا تزال مرسومة في مخيلتي ، وأكثر زميلي من تسآلي عن الطريق وأنا أشير له إلى اتباع هذه الجهة أو تلك وفي كل اتجاه تعترضنا جبال من الأحجار أو وديان من الطلح والسدر التي يصعب اجتيازها ..

وأخيراً وبعد نفاذ الرأي قررنا كأسلم طريق أن نعود إلى القرية التي تركناها بالأمس مساء فلربما أوصلنا البنزين إليها .. وإذا لم نصل إليهـا أو نفذ البنزين دونها فإننا ولا شك سنكون كما قال امرؤ القيس : « اني مقيم ما أقام عسيب ».

قررنا العودة وجعلنا وجهتنا جبالاً تظهر في الأفق وتختفي، انها أغلب الظن تلك التي مررنا بها صباح هذا اليوم .. وعلى غير انتظار وفي اللحظة التي أدرنا فيها السيارة نحو طريق العودة وصارت ترتفع وتهبط فوق الأحجار وبينها .. أثناء ذلك لاح لنا على البعد خيال إنسان فوق مرتفع أمامنا .. هل هو صديق أو عدو ..؟ من الثوار أو من الأعداء .؟ كل هذا لم نفكر فيه المهم انه انسان وانه سيدلنا على الطريق أو على خيام ليست بالبعيدة من هنا ..

استبشرنا برؤية الخيال فاتجهنا إليه وما أن اقتربنـا منه حتى تبيناه عجوزاً بدوية تحمل برميلا باتجاه البئر لتملأ الماء وبجوارها فتاة جالسة تصلح حبل برميلها فكأننا - والحق يقـال - وجدنا نجدة من الجيش ونحن نخوض معركة كدنا نخسرها « ونصيحتي للذي يريـد أن يسبر أغوار الصحراء أن يتدرع بالصبر وبأعصاب من حديد ، وألا يرتبك لأدنى عارض ، وإذا كانوا جماعة فيجب ألا

يظهر بينهم الشقاق حول الاتجاه الصواب وأن تكون الثقة في شخص واحد هو الذي يسير الاتجاه الصواب، وعندما يعجز عن معرفة الطريق يتنازل عن الخبرة إلى شخص آخر .. لأن اختلاف الرأي يعقبه انفراط عقد الجماعة وبالتالي الموت المحقق ، وإذا افتخرت بشيء وأنا الآن بمنزلي بطرابلس في تلك اللحظـــات الحرجة فهو قوة أعصاب زميلي وجلده ، وعدم مناقشته لي في شئون الطريق وممراته ، كما كان هو مسئولاً مسئولية كاملة عن شئون السيارة التي لا أناقشه في شيء مما يخصها ورغم ضياعنـا في ذلك التيه المقفر فلم تنزل معنوياتنا ولم يكف زميلي عن التنكيت » .

اقتربنا من العجوز ونحن نسلم بحرارة كأننا نعرفها منذ سنين وسألناها عن الطريق، فاعتلت صخرة وأشارت بيدهـا للجنوب نحو جبل منقطع غارق في الرمال كالقدر المنكفىء وهي تقول « ان الطريق تمر بزره » أي تمر بجانبه ..

قطعنا حوالي خمسة وثلاثين كيلومتراً حتى التقينا بالطريق ، والطريق في هذه الصحراء عبارة عن آثار جديدة للسيارات ، ومـا أن وطئتها عجلات سيارتنا حتى كدنا أن نعانقها أو على قول قيس :

وأجهشت للتوباد لما رأيته

وكبر للرحمن لمـا رآني

تمدد الغبار في صف طويل خلف سيارتنا وهي تنتفض فوق الكثبان الصغيرة ، ولم نهتم كثيراً بالقرية التي مررنا بها وكان جل أهلها منشغلين بلعبة أرضية كالشطرنج ، قليـــل منهم من رفع رأسه ليلقي علينا نظرة غير مبالية باستثناء شخص واحد ألح علينا أن نتناول كأساً من الشاي كنا في الواقع في حاجة إليه ..

واصلنا السير وعلى يسارنا طول الطريق أرجام من الحجر يحاول الاسبان أن يجعلوا منها حدوداً للأرض التي يحتلونها ، تقف في شموخ حتى ليخيل إلينـا أنها تمد ألسنتها مستهزئة بنا ..

ان هدم هذه الأرجام حلم يراودنا ولكن « العين بصيرة واليد قصيرة »....
خيم الظلام علينا وعلى سيارتنا وعلى الطريق ، وامتد كشاف السيارة أمامنا كمساعد ليرينا خطوط الطريق الحائلة ، ولقد بلغ بنا التعب مبلغه ، فمنذ عشرة أيام لم ننعم بجمام مـــاء ، وصرنا حين نهرش رؤوسنا نغمض أعيننا من التراب المتساقط منها .. والسير في الصحراء ممل .. بل فوق الملل .. فقاطعها كأنــه ينظر لشريط من منظر واحد . وفي التاسعة ليلاً لاحت لنا أضواء ساطعة صارت تتجلى كلما اقتربنا منها .. ظنناها بادىء ذي بدء أنوار قافلة متعبة مثلنا، ومع ذلك طربنا لمرآها ، وجعلت لسيرنا حافزاً كهدف نسعى للوصول إليه وما أتعس السائرين بدون هدف..وفي العاشرة والنصف بلغنا الأنوار،انها مدينة « تندوف » أقصى مدن الجزائر جهة الصحراء ومركز تجمع القوافل في القديم وملتقى الطرق بـــين المغرب وموريتانيا والساقية الحمراء ومالي والجزائر .. والمدينة التي شهدت الحرب بين الأشقاء المغاربة والجزائريين بعيد استقلال الجزائر وذلك للاستيلاء على مناجم الحديد فيها بمنطقة الجبيلات ..

في تندوف

ملنا إلى فندق أنيق أكثر بكثير مما يطمع به أي قاطع لتلك الصحراء الخالية ونحن نحلم بعشاء فاخر وحمام منعش بعد عشرة أيام من الارهاق والتعب، صعدنا درج (فندق المقار) وفي غرفة بسريرين تمددنا بدون عشاء وبدون حمام فالماء لا يوجد إلا ساعتين في النهار والمطعم مغلق الأبواب لا يشتغل لعدم وجود نزلاء .

رفعنا إلى عامل الفندق احتجاجاً شديد اللهجة لعدم وجود العشاء والمـاء ونظراً لروابط الدم والجوار والدين واللغة كما كانوا يلقوننا في المدارس أحضر لنا شيئاً من البطاطس المقلي مع قطع من اللحم وتنعم علينا أيضاً « بسطل » من الماء المغلي مسحنا منه على رقابنا وأيدينا ورؤوسنا ، وذهبنا في نوم عميق وفي

الصباح علمنا أننا النزلاء الوحيدون في هذا الفندق يقوم على خدمتنا أحد عشر عاملاً يتقاضون راتبهم من الدولة فجميع الفنادق مؤممة ، وعندما تركونا بدون غذاء في اليوم التالي سألنا عن السبب فقيل لنا « اللي يشري من السوق واحد كسلان » ونظراً لوجود كسلان من الأحد عشر عاملاً وجب علينا أن نبقى بدون غذاء !!.

في ضيافة الثوار

لنترك الحديث عن « تندوف » لوقت آخر ونروي كيف استضافنا الثوار ذات ليلة من الليالي الأربع التي قضيناها بتندوف ..

كان الهلال رفيعاً في الغرب ينسحب للأفق بهدوء تام نحو الساقية الحمراء وراء جريد النخل الذي تحركه نسائم الربيع المنعشة عندما رافقنا أحد الثوار مشياً على الأقدام إلى دار يقطنها مع زملاء له كلهم مناضلون .. وعلى حصير متواضع قديم وحول مصباح مغبش ضعيف الإنارة تجمعنا نستمع لقصة شاب من أولاد دليم خرج من السجن لتوه ..

السجون في الصحراء

كان الشاب نحيل الجسم براق النظرات ، لا يكف عن التدخين من غليونه العربي القديم ، وقد برزت عظام أضلاعه من فتحة دراعته ..

ان السجن في الصحراء قطعة من الألم والأشياء التي تشاد كل يوم هي المعسكرات والسجون .. يقبض على الانسان لأتفه الأسباب ، وخاصة بعد تفجير الثورة .. فلقد أصيب الاسبان بالجنون وصاروا يقبضون على كل أحد دون استثناء ..

ففي سجن « الداخلة » المكون من ثلاثة طوابق عذبت بالكهرباء وبتسليط

التيار البارد حتى أتجمد، ومن بعده التيار الساخن حتى أحترق، وجلدت بالسياط، أما اللكم والركل بأحذية الجنود فهذا من الأشياء التي نعتبرها أكلات خفيفة .. وبعد التعذيب يوضع السجين في قبر حائطي لا يستطيع التحرك فيه يقضي حاجياته في نفس المحل ..

وسألت الدليمي عن صديق لي كنت أعرفه منذ زمن، يدعى محمد سعيد الرقيبي قيل لي ان الاسبان اعتقلوه أجابني: ان هناك مجموعة من المساجين من بينهم صديقك هذا بسجن (الداخلة) وهو رجل ذو معنويات عالية، فرغم أنواع التعذيب التي تلقاها في بداية سجنه وتعقده من الناس حتى صار يعتقد أن كل من يقف بجانبه يريد أن يصفعه فيتقيه بيدية إلا أن الاسبان لم يستطيعوا أن يتحصلوا منه على شيء ولم يعترف لهم بما يريدون، فالإنسان أثناء العذاب المنصب عليه من سجانيه يفقد الإحساس بالألم من الدقائق الأولى وبعدها يعذبون شيئاً غير موجود.. ومع ذلك يصرون على وضع آلات لتسجيل التأوهات متوقعين أن السجين قد يتفوه بما يفيدهم في التحقيق.. وعلى رأس سجن الداخلة الضابط الاسباني الجلاد (باربا ديو) وتفسير اسمه (لحية الله) وهو من الجلادين المشهورين باختراع التعذيب وابتكار وسائله .

وفي أحد الأيام أراني صديقك هذا قصيداً كتبه على سرواله في غفلة من السجانين طلبت منه أن يكتبه على صدري وقد فعل والقصيد يقول :

فتح الطغاة بنادق الارهاب   وبنوا سجوناً ضخمة الأبواب

متطلعين على المنابر خدعة   متجاهلين ببهجة الاعجاب

ويمزقون بلادنا بشراسة   ويحرمون تعدد الأحزاب

ويزاولون تعسفاً وتعنتاً   بتخبط متجاوز الأطناب

والحق ليس بمختف لمعانه   والشعب يعرف صولة الكذاب

والنور يخفق ساطعاً ببلادنا   والنار تنذر حفنة الأذناب

فحذار من غضب الشعوب فإنه — متوهج متماسك الأقطاب

والشعب ان رفع الرؤوس مآله — يقضي على التخريب والإرهاب

ولقد اعترف الحاكم العسكري الاسباني بالصحراء بدور هذه الثورة في خطابه الأخير الذي ألقاه في مجلس الجماعة بالصحراء، والذي قال فيه :

« ان أولئك الذين يحاولون القيام بأبشع الأعمال ضد الكيان الصحراوي سوف توضع حسنات أعمالهم في ميزان مثقوب ويزدادون نكبة على فضيحة .. إلى أن يقول :

« ان أولئك الذين ذكرت هم الذين يقومون ببعض الأعمال المشوشة من الخارج.. لكن سيرون نتائج أعمالهم التي ستؤدي بهم إلى فشل ذريع في مستقبل قريب وسوف يصبحون لا وطن لهم ويلقبون بأصحاب الاجرام ..



« ان الحكومة الصحراوية تتلقى هذا كله بصبر وعزيمة، ولا يعتقد أحد أنها ضعيفة وليس بوسعها القيام باللازم .. ونعرف أن الصبر له حد . لذلك فإن

الذي يعتدي على الصبر أو يعتدي على الأعمال الصالحة ، سيرى بلا شك عاقبة اعتدائه وكلكم تدركون أن الطبيب لا شفقة له ، والإنسان إذا كان مريضاً فإن الطبيب يبذل كل جهده في سبيل علاجه ، وإذا كان المريض يعاني من مرض في بعض أعضائه يخاف منه على الجسم كله فإن ذلك العضو يجب قطعه ، إذا رأينا أن أعمالاً قام بها ضد الذي يتمتع به الشعب الصحراوي بكل سعادة .. واجب علينا اتخاذ التدابير اللازمة لأن مصلحة الشعب الصحراوي مسألة مقدسة عندنا .. ويجب علينا الدفاع عنها لأن اسبانيا فرضت على نفسها حماية هذه المقدسات وقيامها ، بهذا الواجب يعد من قبل مصلحة الشعب الصحراوي .. »

هذا هو منطق المستعمر الأعوج .. الإنسان الذي يطالب بحريته واستقلال بلده يعتبر عضواً مريضاً يجب بتره ..

وهنا سألت الشاب الدليمي :

– وهل هذه هي المرة الوحيدة التي دخلت فيها السجن ؟؟

أجاب :

– لا ، ان دخول السجن بالنسبة للصحراويين أصبح شيئاً معتاداً وكأنه من لوازم العيش في الصحراء .. فبعد دخولي السجن وتعذيبي فيه ولما انتهت المدة التي أرضتهم لبقائي بالسجن أخرجوني وسلموني للمغرب حيث أودعت في أحد سجون المغرب وبقيت فيه مدة لا تقل ألماً عن السجن في الصحراء ..

وفي غفلة الحراس الذين قلما تحوز منهم غفلة هربت من السجن ومن المغرب والتحقت بالثورة ..

وبعد منتصف الليل خرجنا كالأشباح ليقذفنا الظلام القاتم إلى الفندق ... وفي السكون الذي لا يقطعه إلا نباح كلاب البدو المنتجعين حوالي المدينة صعدنا إلى غرفتنا للنوم ..

وبعد أربعة أيام من الاقامة بتندوف واصلت السير بالسيارات العامة بعد أن فارقت زميلي وسيارته . حيث قطعت ألفين من الكيلومترات باتجاه العاصمة الجزائرية . والتي منها امتطيت الطائرة لطرابلس .

وفي طرابلس وجدت أمامي احتجاجاً من وزارة الخارجية الجزائرية لأنني شوهدت أوزع مناشير خطيرة في الجنوب !! ولم تكن تلك المناشير غير بعض النسخ من مجلة الوحدة العربية أعطيتها لمسئول الحزب هناك للاطلاع على هذه المجلة .. ولله في عربه شئون !!



موقف الدول المجاورة

ترددت كثيراً في الكتابة تحت هذا العنوان. لأن سرد الحقيقة قد ينكأ الجراح التي تؤلم الكثيرين .

غير انني في النهاية قررت الكتابة باعتباري مواطناً من هذا الوطن الكبير تهمني همومه وتسرني مسراته ..

ولأن الحقيقة إذا سكت عنها فسح المجال للباطل الذي يطـــل برأسه كلما احتجب الحق أو حيل دونه .

ولا أدل على ذلك من باطل أشهده هذه الأيام وأقرأه كمحاولة لسرقة الثورة من مفجريها . وانتحال شخصية الثوار والاستحواذ على مكاسبهم التي حققوهـا بالعرق والدم . طيلة أكـثر من خمسة عشر شهراً متواصلة من الكفـاح المسلح الجاد .

فلقد فجر الثوار في الساقيـة الحمراء ووادي الذهب ثورتهم بمعزل عن كل الأنظمة المجاورة . وبأهداف ثورية لا تروق لحكام المنطقة .

فالجبهة الشعبية لتحرير الساقية الحمراء ووادي الذهب، هدفها التحرير وهدفها الوحدة العربية على أساس تكافؤ الفرص. وعلى أساس التوحيد مع النظم العربية التقدمية حتى لا تتسع رقعة الرجعية العربية. وحتى لا يتسع مجال النفوذ الأجنبي في الأراضي العربية .

فالمغرب الذي أشهد هذه الأيام تحركه السياسي والاعلامي بحجة تحرير الصحراء . أين كان منذ عام ١٨٨٣ ؟

ولماذا لم يثر هذا الموضوع منذ أعوام ؟

ولماذا لم يتحدث عن الصحراء قبل أن تنفجر الثورة الشعبية فيها ؟

ولماذا كان صوت الجمهورية العربية الليبية في اجتماع وزراء خارجية منظمة الوحدة الأفريقية عام ١٩٧١ هو الصوت الوحيد المطالب باضافة الساقية الحمراء كمنطقة افريقية يجب تحريرها ؟

ولماذا كان صوت العقيد معمر القذافي هو الصوت الوحيد المطالب بتحريرها عام ١٩٧١ وما بعده من أعوام ؟ وقد يذكر الموريتانيون خطاباً له باطار احدى مدن الشمال الموريتاني بالقرب من الأراضي الصحراوية طالبهم فيه بالتكاتف لتحرير الصحراء .

وفي الكلمة التي ردّ بها العقيد القذافي على سفير اسبانيا أثناء تقديم الأخير أوراق اعتماده في طرابلس قال له : « يجب أن ترحل اسبانيا من الصحراء والا وجدنا أنفسنا وجهاً لوجه معها وان صداقتنا لا قيمة لها ما لم تستقل الصحراء .

ولماذا كان عبد السلام جلود رئيس الوزراء الليبي هو المسئول العربي الوحيد الذي طالب فرانكو شخصياً في مايو ١٩٧٤ بالاسراع بتحرير الصحراء . وانسحاب اسبانيا منها .

كل هذا والمغرب غير موجود في الساحة ولا يحرك ساكناً بل ويعقد الاتفاقيات مع الاسبان ويفتح المناطق الحرة على الحدود تجمع الاسبانيين والعرب في الطنطان وغيرها . كما يتساهل في فتح الحدود المغربية الصحراوية لدخول الاسبان وخروجهم .

وحتى في مؤتمر نواذيبو الذي عقد بين رؤساء الجزائر والمغرب وموريتانيا والذي لم يدم أكثر من نصف ساعة لم يتفق الرؤساء على صيغة لتحرير الصحراء بالرغم من أن المؤتمر عقد من أجلها .. بل كل هم المغرب أن تكون الصحراء جزءاً من ترابه كما كان حرص موريتانيا أيضاً .

وقد كان الاتفاق المبدئي أن تكون الساقية الحمراء التي تحتوي على منجم

الفوسفـــات في (بوكراع) من نصيب المغرب وأن يكون وادي الذهب الذي يحتوي على النفط من نصيب موريتانيا. أما والجزائر التي أصرت موريتانيا على اشتراكها في الحوار كشاهد عدل لحفظ التوازن تحوز هي الأخرى ممراً ضيقاً يفصل القطاعين لتحرز ميناء على المحيط تصدر منه معادنها الواقعة بالجبيـلات بمنطقة (تندوف) .

ولم يتفق الرئيسان الملك الحسن ومختار ولد داده على موقع الممر فكل منهما يريده في حصة الآخر .

وقد استاء الصحراويون من هذا التقسيم . ووجدوا أنفسهم كغنيمة تقسمها الدويلات المجاورة دون أن تساهم معهم في تحرير بلادهم . وهذا مـــا جعلهم يتكاتفون متفقين على عدم الانضمام لأي من البلدان المجاورة والمطالبة بهم .

وقد حاول المغرب تكوين منظمات صورية الغرض منها اظهار دور المغرب والمناداة بالانضمام إليه .

فتكونت منظمة الرجال الزرق. و«حركة ٢١ أغشت» «والجبهة الثورية التقدمية لتحرير الساقية الحمراء ووادي الذهب وسبته ومليليه» ولكن هذه الحركات لم يكن لها أي تواجد داخل المنطقة . وانما مهمتها الدعاية فقط . وتسلل المخبرين المغاربة تحت اسمها لجس نبض الانظمة المجاورة – الجزائر وموريتانيا – وحتى الجمهورية العربية الليبية . ولعل قصة (ادوار موحا) ليست بالبعيدة عن الاذهان.

ولقد حاولت موريتانيا أن تعمل شبه ذلك بايوائها لبعض العناصر الصحراوية الهاربة من العسف الاسباني لتكون ممن يحمل وجهة نظرها في المنطقة . كما فعلت أيام اللجنة المكلفة من هيئة الأمم لاستقصاء الحقائق .

غير ان موريتانيا لم تفلح في تكوين منظمة تنادي باسمها .

وعندما تفجرت الثورة الشعبيـة بالصحراء في ٢٠ مـايو ١٩٧٣ فوجىء

المغرب كما فوجئت موريتانيا بذلك . وحتى الجزائر لم تكن على علم تام . غير انه مما زاد في حنق المغرب وموريتانيا ان البيان الذي صدر عن الجبهة كاعلان عن تأسيسها في ١٠ مايو ١٩٧٣ يرى ضرورة التعاون مع الجزائر والاستفادة من تجربة ثورة الجزائر كثورة تقدمية في المنطقة . وتجاهل البيان ذكر المغرب وموريتانيا .

ولكن .. هل الجزائر كانت على علم هي الأخرى ؟

أجابني أحد الثوار على هذا السؤال انها لا تعلم . ولكن زججنا باسمها في البيان لاحراجها . وحتى لو رفضت التعاون معنا فانها قطعاً لا تستطيع أن تقف ضدنا .

وهنا قامت الاتصالات بين المغرب واسبانيا من جهة . وبين موريتانيا واسبانيا من جهة أخرى لتنسيق الدور وتضييق الخناق على الثورة .

فكان ان قررت المغرب واسبانيا عقد اجتماعات دورية كل خمسة عشر يوماً بين المسئول الاسباني والمسئول المغربي بمنطقة الطنطان لمطاردة الثوار وعدم تسللهم من الأراضي المغربية واليها .

ونتج عن ذلك أن القوات الاسبانية أصبحت تتوغل أربعين كيلومتراً في التراب المغربي لمطاردة الثوار وقتلهم . والذي يفلت من الاسبان تقبض عليه القوات المغربية وتذيقه أنواع العذاب وتودعه السجن ، ولقد التقيت بمجموعة من الثوار عذبوا بالمغرب لانتمائهم للثورة . وكانت الأسئلة الملحة التي تلقى عليهم هي معرفة هوية الثورة ومن يقوم بتمويلها .

أما موريتانيا فقد ذهبت إلى أكثر من ذلك حيث قبضت سلطاتها «في بئر أم أقرين» على مجموعة من الثوار التجأوا إلى أراضيها في أواخر عام ١٩٧٣ وصادرت اسلحتهم وابلهم وسلمت الأسرى الذين كانوا معهم إلى الأسبان . رغم أن أربعة من الأسرى رفضوا الرجوع إلى الاسبان لأنهم من الجنود العرب ولكن

موريتانيا أصرت على تسليمهم اظهاراً لحسن نواياها للاسبان. ولم تكتف بذلك بل كانت تطاردهم على الحدود وتلجئهم للتوغل في الأراضي المستعمرة لتظفر بهم السلطات الاسبانية .

وقد تمكنت مرة أخرى من تسليم مجموعة من الثوار التجأوا إليها ..

وقد اجتمع المسئول العسكري الاسباني بالصحراء مع الموريتانيين في «بئر أم اقرين» بحضور السفير الاسباني بموريتانيا . وبعض الوزراء الموريتـانيين وذلك لتنسيق الدور لمحاصرة الثورة .

كما زار وفد اسباني مدينة «أطار» احدى المدن الشمالية بموريتانيا كما تم لقاء آخر بين الاسبان والموريتانيين في بلدة تيملوزه وآخر بمدينة العيون عاصمـــة الصحراء . ولقد سلمت اسبانيا للموريتانيين قائمـــة المطلوبين من الصحراويين اصبحت بعدها الحكومة الموريتانية تطاردهم وتبحث عنهم لتسليمهم .

أما الدوريات الاسبانية فهي تتوغل داخل التراب الموريتاني دون أن يحدها أحد . وذات مرة في صيف عـام ١٩٧٣ توغلت من جهة (قليب الجراد) بين الزويرات والبئر أكثر من ستة وثلاثين كيـلومتراً . حتى وصلت إلى منتجع موريتاني قبضت على شخص وحققت معه واستخدمت معه العنف واستاقته إلى الصحراء . ولم يطلق الاسبان سراحه حتى زار حاكم الزويرات الموريتاني بلدة (اوسرد) داخل الصحراء وألحّ في رجاء المسئولين الاسبان فاطلقوا سراح الرجل بعد أن أشبعوه تعذيباً . محاولة منهم لمعرفة مواقع الثوار .

وبعد هذا ...

تحركت المغرب أخيراً لأنها تعلم أن اسبانيا ستنسحب من الصحراء في العام القادم ١٩٧٥ .

وحتى تظهر حكومة الملك أمام العالم بمظهر المنقذ الفذ بعثت مراسيلهـــا

لشرح خطة التحرير هذه التي تقول أنها فجرت الثورة من أجلها بالصحراء بحكمة جلالته !!!

فاستدعت أخيراً النقيب أبا الشيخ ولد أبا علي (وهو من أصل صحراوي ويعمل بالجيش الملكي) وذلك لمقابلة الملك .

وقد تم ذلك في يوم ١٥ يونيه ١٩٧٤ م . وكلفه بتكوين مجموعة على أساس قبلي من الجيش أو من المدنيين . وبعد أسبوع رجع للملك ليعطيه الخطة التي يسير عليها .

ومن جهة أخرى صارت الصحف المغربية تنشر بيانات الجبهة الشعبية وبلاغاتها قائلة أنها تهدف إلى تحرير الصحراء وإعادتها إلى الوطن الأم !!!

كما أن المغرب يوعز للجماهير في المغرب أن الجبهة الشعبية لتحرير الساقية لحمراء ووادي الذهب كونها المغرب ويساندها وهي تتبع له !!

ونظراً للحصار الاعلامي المضروب حول الجبهة الشعبية فمن المتوقع أن يخرج المغرب مجموعة النقيب أبا الشيخ ليقول أن هذه هي الجبهة الشعبية لايهام الجماهير بصحة دعواه .

ويسرق بذلك التأييد الجماهيري للجبهة الشعبية .

ولقد ذهب المغرب في تضخيم دوره إلى حد أنه نسب مرض الجنرال فرانكو الأخير إلى رسالة بعث بها الملك الحسن شديدة اللهجة بخصوص تحرير الصحراء !!! ومن العجب أن يتناسى المغرب – وأقصد دائماً السلطة – ان فرانكو لم يمرض عندما سمع موضوع المطالبة بتحرير الصحراء شفهياً ووجهاً لوجه من الرائد عبد السلام جلود عندما قابله في مايو ١٩٧٤ .

وقد لا يعلم ملك المغرب أن شعب الصحراء شديد الاستياء من تصريح له لإحدى الصحف الشرقية واظنها مجلة المصور المصرية عندما قال :

« ان سكان الصحراء عبارة عن سراح لي » أي أنهم مجموعة من الرعاة لأغنام جلالته !!

ولقد سمعت من أكثر من صحراوي قولهم « لسنا رعاة للملك ولن نكون ذلك في المستقبل ».

تلخيص الموقف

ويمكن تلخيص الموقف في المنطقة كالآتي :

١ – **موريتانيا** ترفض أن يقوم نظام ثوري على حدودها مع العلم أن الشعب الموريتاني جميعه مع الثورة ويقف مؤيداً لها . وهو يؤوي الثوار ويخبئهم عن أعين السلطة . ولكن موريتانيا تحبذ أن تستلم الصحراء بالطرق السلمية من الأسبان بعد رحيلهم إذ أن معظم القبائل الصحراوية لها فروع وأصول بموريتانيا ونسب . وموريتانيا عاجزة عن أن تقود أي تنظيم ضد أسبانيا أو غيرها . وهي أعجز عن حماية ترابها في حالة تصميم الاسبان على مطاردة الثوار أو غير الثوار داخل التراب الموريتاني .

وأمام إصرار المغرب على الاستحواذ على الصحراء والتفرد بها تتمنى موريتانيا أن يقاسمها المغرب (غريمها السابق والمطالب بها) منطقة الصحراء . شريطة ألا تكون والمغرب وجهاً لوجه يفصلها خط وهمي يسمى حدود ، ولهذا تطالب أن تدخل الجزائر كحاجز أشبه بسور برلين بين المغرب وموريتانيا .

ومطالبتها بالصحراء هو نوع من الضغط لإجبار المغرب على التقسيم ..

٢ – **المغرب** : غير جاد في تحرير الصحراء . ولكن الثورة في الصحراء جعلته بين خيارين .

إما أن يلتهم الثمار حين نضجها ويخرج بالغنم وحده وإما أن تستقل المنطقة منفردة يعززها قرار هيئة الأمم القاضي بتقرير المصير لشعب الصحراء على ضوء استفتاء شعبي ومن المعلوم أن اسبانيا تحتل للمغرب منطقتي (سبته ـ ومليليه)

في الشمال . فإن كان غرض المغرب هو التحرير فلماذا يترك أراضيه الحقيقيـة تحت النفوذ الاسباني ؟

ومع ذلك تسعى لتحرير الصحراء التي حتماً ستتحرر بإرادة شعبها الذي فجّر الثورة .

وانطلاقاً من مبدإ قطف الثمار هناك اتفاق بين المغرب وأمريكا واسبانيا ، يقول :

في حالة انسحاب اسبانيا من المنطقة تستولي المغرب على المنطقة مقابل :

أ – قاعـــدة جوية كبيرة تحتفظ بها أمريكا بالقرب من مدينة الداخلة (الرقيبة) . وهي القاعدة التي رحلت من طرابلس الغرب .

ب – قاعدة جوية كبيرة تحتفظ بها اسبانيا ببلدة (القويرة) قرب الحدود الموريتانية ٢ كيلومتر .

ج – تحتفظ الشركات الغربية التي تدير منجم فوسفات بو كراع بحقها في إدارة المنجم .

د – تحتفظ الشركات الغربية بحقها في إدارة آبار النفط والتنقيب عليه في المنطقة .

وهكذا يخرج الاستعمار العسكري وتبقى قواعـــده في المنطقة والسيطرة لنفوذه الاقتصادي .

أما إذا وجد المغرب نفسه مضطراً لتقسيم المنطقة بينه وبين موريتانيا نظير سكوتها . والمتوقع أن التلويح بالتقسيم هو الذي أسكتها . وقد سبق للملك أن أعلن عام ١٩٧٢ بعد مؤتمر قمة الوحدة الافريقية بالرباط أن المنطقـة ستقسم بين موريتانيا والمغرب .

وبما أن الممر الذي سيعطى للجزائر لتصدر منه كميات الحديد بمنجم الجبيلات بمنطقة تندوف الذي كان سبب الخلاف بين المغرب والجزائر عام ١٩٦١ ،واتفق

أخيراً في اجتماع الدار البيضاء بين الرئيس هواري بومدين والملك الحسن الثاني على مقاسمة المنجم وتكوين شركة مغربية جزائرية لإدارة المنجم واستثماره ، وتصديره عن طريق خط حديدي ينشأ إلى بلدة أغادير بالجنوب المغربي فإذا حدث وأن أعطيت الجزائر ممرها للمحيط ، فإن الخط الحديدي ـ الذي لم ينشأ بعد ـ سيشق إلى الصحراء وبالتالي يستفيد المغرب بذلك أيضاً .

٣ ـ **الجزائر** : ولقد أصبحت الجزائر طرفاً في الموضوع بعد أن حشرتها موريتانيا في مؤتمر نواذيبو . وهي ستربح مهما كانت التقسيمات . خاصة وأن الثوار يأمنون جانبها ويركنون إليها أكثر من غيرها . علماً بأنها لم تساعدهم ولم تتفضل عليهم بشيء . وهي أيضاً تتوجس منهم خيفة لأنهم يرفضون تدخلها في شئونهم الداخلية كما يرفضون إعلامها بمخططاتهم السرية .

ورأي الجزائر غير واضح . حتى عندما سئل وزير خارجيتها : لأي جهة تنتمي الصحراء ؟ قال : « إنها جزء من المغرب العربي ». مخافة أن يحرج المغرب أو موريتانيا .

ولقد فرضت الجزائر نفسها كشريك في القضية . وبالتالي فهي مع التقسيم حتى لا تخرج من المولد بدون حمص .

وماذا عن اسبانيا ..؟

أما اسبانيا فهي لن تستمر في الصحراء . نتيجة للثورة المضطرمة في داخل الصحراء .

ونتيجة للمطالبة الملحة من الجمهورية العربية الليبية برحيل الاسبان من المنطقة . ولا يخفى مقدار العلاقات الاقتصادية بين البلدين . ولقد صرح الحاكم العسكري بالصحراء قائلاً : « إن الثوار تأتيهم قهوة الصباح ساخنة من ليبيا ». زد على ذلك نشاط المعارضة في داخل اسبانيا وتدهور صحة الجنرال فرانكو .

وانقلاب الأوضاع في البرتغال . وحرص اسبانيا على علائقها مع العرب .

ولقد كان المسئولون الاسبان يرددون نحن لا نمانع في الخروج من الصحراء . ولكن المغرب وموريتانيا يطالباننا بالبقاء حتى يحسما الموضوع بينهما .

كل هذا يجعل اسبانيا تنسحب من المنطقة عام ١٩٧٥ ولكن كيف ..؟

بالرغم من الاتفاقات الاسبانية الموريتانية ، والاسبانية المغربية ، فاسبانيا تسعى لتكوين جبهة معارضة لها صورياً لتمتص نقمة الشعب ، وتسلم لها البلاد ساعة خروجها إذا ما تلكأ المغرب في الانقضاض على الصحراء أو إذا ما حدثت ظروف غير مؤاتية له .

وهذه الجبهة متمثلة في الجمعية العمومية (مجلس الجماعة) وهو أشبه بمجلس النواب ،للصحراء ويتكون من شيوخ القبائل . والاستقلال الذاتي الذي تريده اسبانيا للصحراء هو تسليم البلاد صورياً لهؤلاء المشايخ .

ولقد خلقت اسبانيا للشيخ «خطري ولد الجماني» رئيس مجلس الجماعة شخصية معارضة في كثير من المواقف . حتى أنه كان على رأس المظاهرة التي حدثت في ١٧ يونيه ١٩٧٠ بالعيون . وبقي تحت الإقامة الجبرية أكثر من شهرين .

وخطري هذا بالرغم من أنه رجل أمي فهو يتميز بذكاء وقاد . ويرأس قبيلة الرقيبات إحدى أكبر قبائل الصحراء . وله طموح كبير .

اكتشفته فرنسا أثناء حكمها للجزائر وموريتانيا ولعبت به في موضوع جمهورية الصحراء التي اقترحها حكم الجنرال ديجول والتي تكون عاصمتها تندوف وقد كان خطري هذا أحد المرشحين لرئاستها . كمحاولة من فرنسا لاقتطاع الجنوب الجزائري وشمال مالي وموريتانيا وجنوب غرب ليبيا . ولكن الخطة فشلت لامتناع شعب المنطقة عن الاقتطاع من الأوطان الأم .

هذا هو ملخص الموقف بالصحراء .

ثورة شعبية تحمل أهداف التحرير والوحدة العربية تشتعل منفصلة عن كل

النظم المجاورة لها .

استغلال الموقف من المغرب للانقضاض على شعب الصحراء وسرقة ثورته . يشجعه في ذلك ضعف الجارة المجاورة (موريتانيا) ومهادنة نظام هواري بومدين له .

تفهم اسباني للموقف العربي المصر في الجمهورية العربية الليبية على تحرير الصحراء .

مشاكل داخلية في النظام الاسباني تلح بالتفرغ لها .

كل هذا يجعل اسبانيا تنسحب من الصحراء في عام ١٩٧٥ على أرجح التخمينات .

ونحن هنا يهمنا تحرير الصحراء ، وتخليصها من النفوذ الأجنبي دون أن تبقى أية ذيول له ، ودون أي تجاهل للثورة في داخل الصحراء . أولئك الرجال الذين تحركوا في أسوإ الظروف ووسط تراب معادي تحيط به أنظمة غير متعاونة ومع ذلك ضحوا بكل شيء وفجّروا الثورة واستمرت . ونرجو لها التوفيق بعون الله .

وإذ نوضح الظروف الحالية التي تمر بها الساقية الحمراء ووادي الذهب ، لنرجو من العرب كل العرب أن يلتفوا ويستنهضوا لمساعدة المنطقة على التحرر . وانضمامها لأي قطر عربي ليس هو نقطة الخلاف فالأمر متروك بعد ذلك لأهل الصحراء إذا ما تحرروا .

طبع على مطابع
دار لبنان
للطباعة والنشر
بيروت - ص.ب ٥٦٢٠ - هاتف ٢٩٣٠٤٢

دار لبنان للطباعة والنشر
بيروت - لبنان



الثمن (٣٥٠ ق.ل
او ما يعادلها)